الفصل الثاني والأربعون

مكة المكرمة

ومكة بلد في وادٍ غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جُرْد ، فتزيد في قسوة مناخهـا . ليس بها ماء ، غير ماء زمزم ، وهي بئر محفورة ، وآبار أخرى عجة حفرها أصحاب البيوت ، أما مياه جارية وعيون غزيرة ، على ما نرى في أماكن أخرى ، فليس لها وجود بهذا المعنى هناك . وكل ما كان يحدث نزول سيول ، قد تكون ثقيلة قوية ، تهبط عليهـا من شعاب الهضاب والجبال ، فتنزل بهـا أضراراً فادحة وخسائر كبيرة ، وقد تصل الى الحرم فتؤثر فيه ، وقـد تسقط البيوت ، فتكون السيول نقمة ، لا رحمة تسعف وتغيث أهل البيت الحرام[1] .

لذلك لم تصلـح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيـل وزرع وحَب ، فاضطر سكانها الى استيراد ما يحتاجون اليه من الأطراف والخارج ، وأن يكتفوا في حياتهم بالتعيش مما يكسبونه من الحجاج ، وأن يضيفوا الى ذلك تجارة تسعفهم وتغنيهم ، وتضمن لهم معاشهم ، وأماناً وسلماً يحفظ لهم حياتهم ، فـلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينغص عيشهم منغص . (وإذ قال ابراهيم : ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ...)[2] .

---

١ تاريخ مكة ، للأزرقي (٣٨/١ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٦٥ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الآية ١٢٦ .

ويعود الفضل في بقاء مكة وبقاء أهلها بها الى موقعها الجغرافي ، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشأم ، أو القادمة من بلاد الشأم تريد العربية الجنوبية ، والتي كان لا بـد من أن تستريح في هـذا المكان ، لينفض رجالها عن أنفسهم غبار السفر ، وليتزودوا ما فيه من رزق . ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سرّ السفر وفائدتـه ، فسافروا أنفسهم على هيأة قوافل ، تتولى نقل التجارة لأهل مكة وللتجـار الآخرين من

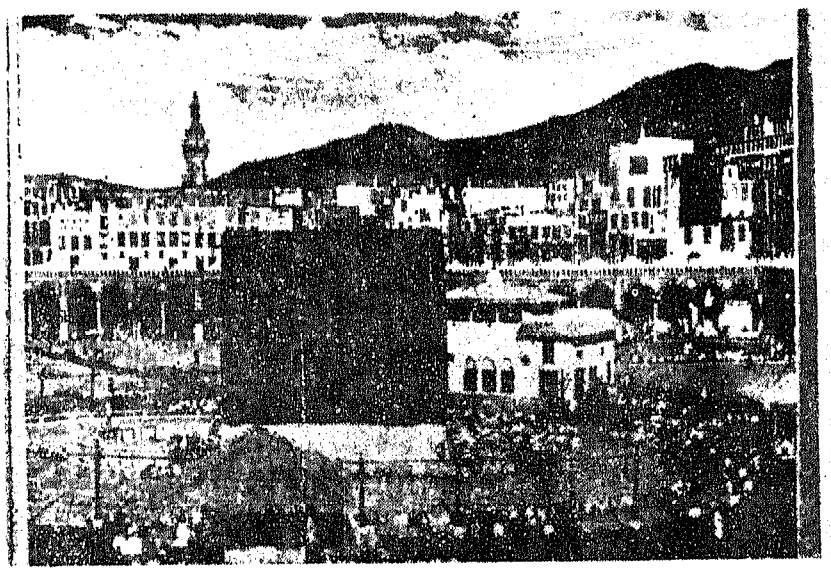

مكة المكرمـة

أهل اليمن ومن أهل بلاد الشأم . فلما كان القرن السادس للميلاد ، احتكر تجار مكة التجارة في العربية الغربية ، وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشأم وبالعراق [1] .

---

١ W.M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 3.

وللبيت فضل كبير على أهل مكة ، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحـاء العالم حتى اليوم للحج اليه . وقد عرف البيت بـ (الكعبة) لأنه مكعب على خلقة الكعب . ويقال له : (البيت العتيق) و (قادس) و (بادر) ، وعرفت الكعبة بـ (القرية القديمة) كذلك [1].

وبمكة جبل يطل عليها ، يقال له جبل : (أبو قبيس) ، ذكر بعض أهل الأخبار انه سُمّي (أبا قبيس) برجل حداد لأنه أول من بنى فيه . وكان يسمى (الأمين) لأن الركن كان مستودعاً فيه [2] . وأمامه جبل آخر ؛ وبين الجبلين وادٍ ، فيه نمت مكة ونبتت . فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات .

وقد سكن الناس جبل (أبـي قبيس) قبل سكنهم بطحاء مكة ، وذلك لأنـه موضع مرتفع ولا خطر على من يسكنه من اغراق السيول له . وقد سكنته (بنو جرهم) ، ويذكر أهل الأخبار انه إنما سُمّي (قبيساً) بـ (قبيس بن شالخ) رجل من جرهم . كان في أيام (عمرو بن مضاض) [3] .

١ نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٢ نزهة الجليس (١/٢٧) .

٣ اللسان (ق ب س) ، (وأبو قبيس مصغرا جبل بمكة . هذه عبارة الصحاح ، وفي التهذيب جبل مشرف على مسجد مكه ، سمي برجل من مذحج حداد ، لأنه أول من بنى فيه . وفي الروض للسهيلي : عرف أبو قبيس بقبيس بن شالح ، رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنه عمه مية . فنذرت أن لا تكلمه . وكان شديد الكلف بها ، فحلف ليفعلن فبيسا ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره ، فاما مات واما نردى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . قال : وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبـــل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعا فيه . كما ذكـــره أهل السير والمغازي) ، تاج العروس (٤/٢١٢) ، (قبس) ، (والأخشبان : جبلا مكة ، وفي الحديث في ذكر مكة لا تزول مكة حتى يزول أخشباها ، أي جبلاها ... الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس وقعيقعـان ويسميان : الجبجاب أيضا . ويقال بل هما أبو قبيس والأحمر . وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان . وقال ابن وهب : الأخشبان جبلا منى اللذان تحت العقبة ، وكل خشن غليظ من الجبال ، فهو أخشب . وقال السيد العلوي : الأخشب الشرقي أبو قبيس والأخشب الغربي وهو المعروف بجبل الخط . والخط من وادي ابراهيم عليـــه السلام . وقال الأصمعي : =

ويظهر انه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين ، فقد كان نُسّاك مكة وزهادها ومن يتحنف ويتحنث ويترهب من أهلها في الجاهلية يصعده ويعتكف فيه . ولعله كان مقام الطبقة المترفة الغنية من أهل مكة قبل نزوح (قريش) الى الوادي ، وسكنها المسجد الحرام المحيط بالبيت .

ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة الى وجود أطم أو حصون في مكة للدفاع عنها ، ان هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات حصون وبروج ولا سور يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أي عدو لها . ويظهر ان ذلك إنما كان بسبب ان مكة لم تكن قبل أيام (قصيّ) في هذا الوادي الذي يتمركزه (البيت) ، بل كانت على المرتفعات المشرفة عليه .

اما الوادي ، فكان حرماً آمناً يغطيه الشجر الذي انبتته السيول ورعته الطبيعة بعنايتها ، ولم يكن ذا دور ولا سكن ثابت متصل بالأرض ؛ بل كان سكن من يأوي اليه بيوت الخيام . واما أهل المرتفعات فكانوا ، إذا داهمهم عدو أو جاءهم غزو ، اعتصموا برؤوس المرتفعات المشرفة على الدروب ، وقاوموا العدو والغزو منها ، وبذلك يصير من الصعب على من يطمع فيهم الوصول اليهم ، ويضطر عندئذ الى التراجع عنهم ، فحمتهم الطبيعة بنفسها ورعتهم بهذه الرؤوس الجبلية التي أقامتها على مشارف الأودية والطرق . فلما أسكن (قصي) أهل الوادي في بيوت ثابتة مبنية ، وجاء ببعض من كان يسكن الظواهر لنزول الوادي ، بقي من فضّل السكن في ظواهر مكة ، أي على المرتفعات . يقوم بمهمة

= الأخشبان أبو قبيس ، وهو الجبل المشرف على الصفا ، وهو ما بين حرف أجياد الصغير المشرف على الصفا الى السوداء التي تلي الخندمة . وكان يسمى في الجاهلية الأمين ، والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له الأحمر ، وكان يسمى في الجاهلية الأعرف ، وهو الجبل المشرف وجهه على فعبقعان) ، تاج العروس (١/٢٣٤) ، (خشب) ، (قال الزبير بن بكار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى ، أو أسواقها أو منحر . وقال البرقي : حفر بمنى كان يلقى به الكروش ، أي كروش الأضاحي في أيام الحج . أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا . والعرب تعظمها وتفخر بها) ، تاج العروس (١/١٧٤) ، (جبب) .

حماية نفسه وحماية أهل البطحاء من تلك المرتفعات ، وهـم الذين عرفوا بقريش الظواهر . فلم تعد لأهل مكة سكان الوادي ثمة حاجة الى اتخاذ الأطم والحصون، وبناء سور يحمي المدينة من الغزو ، لا سيا والمدينة نفسها حرم آمن وفي حمايـة البيت ورعايته . وقـد أكد (قصي) على أهلهـا لزوم إقراء الضيف ورعاية الغريب والابتعاد عن القتال وحل المشكلات حلاً بالتي هي أحسن . كما نظم أمور الحج ، وجعل الحجاج يقدون الى مكة ، للحج وللاتجار . ثم أكد من جاء بعده من سادة قريش هذه السياسة التي افادت البلد الآمن ، وأمنت له رزقه رغداً .

ولم يرد اسم (مكة) في نص الملك (نبونيد) ملك بابـل ، ذلك النص الذي سرد الملك فيه أسماء المواضع التي خضعت لجيوشه ، ووصل هو اليهـا في الحجاز فكانت (يثرب) آخر مكان وصل اليه حكمه في العربيـة الغربية على ما يبدو من النص .

ولم نتمكن من الحصول على اسم (مكة) من الكتابات الجاهلية حتى الآن . اما الموارد التأريخية المكتوبـة باللغات الأعجمية ، فقد جـاء في كتاب منها اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا) (Macoraba) ، واسم هذا الكتاب هو (جغرافيا) (جغرافية) (للعالم اليوناني المعروف (بطلميوس) (Ptolemy) الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد . وقد ذهب الباحثون الى ان المدينـة المذكورة هي (مكة)[1] . وإذا كان هذا الرأي صحيحاً يكون (بطلميوس) أول من أشار اليها من المؤلفين وأقدمهم بالنظر الى يومنا هذا . ولا أستبعد مجيء يوم قـد لا يكون بعيداً ، ربما يعثر فيـه المنقبون على اسم المدينـة مطموراً تحت سطح الأرض ، كما عثروا على أسماء مدن أخرى وأسماء قرى وقبائل وشعوب .

ولفظة (مكربة) (Macoraba) ، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني ، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب . وقـد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة (سبأ) القديمة ، ان حكامها كانوا كهاناً ،

---

١ Ptolemy, Geography, VI, 7, 32.

أي رجال دين ، حكموا الناس باسم آلهتهم . وقد كان الواحد منهم يلقب نفسه بلقب (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا . فهو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو مقرب الناس الى آلهتهم ، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة ، وفي هذا المعنى جاء لفظة (مكربة) ، لأنها (مقربة) من الآلهة ، وهي تقرب الناس اليهم ، وهي أيضاً مقدسة و (حرام) ، فاللفظة ليست علماً لمكة ، وإنما هي نعت لها ، كما في (بيت المقدس) و (القدس) إذ هما نعت لها في الأصل . ثم صار النعت علماً للمدينة .

أما ما ذهب اليه بعض الباحثين من ان المعبد الشهير الذي ذكره (ديودروس الصقلي) (Diodorus Siculus) في أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni) [1] ، وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة — فهو رأي لا يستند الى دليل مقبول معقول . فالموضع الذي يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعداً كبيراً ، وهو يقع في (حسمى) في المكان المسمى (روافة) (غوافة) على رأي (موسل) . وقد كانت في هذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار اليها الكتبة اليونان والرومان ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأمكنة [2] .

وإذا صح رأينا في ان موضع (Macoraba) هو مكة ، دلّ على انها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وانها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين . وبفضل هذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد . ودلّ ايضاً على انها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطليموس) إذ لا يعقل ان يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع ذلك العالم الساكن في موضع بعيد . ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد .

١ C.H. Oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca, Book, III, XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus The Sicilian, 105, Gerald De Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, P. 12.

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٥٣) .

وقد عرفنا من الكتابات الثمودية أسماء رجال عرفوا بـ (مكي) . ولم تشر تلك الكتابات الى سبب تسمية اولئك الرجال بـ (مكي) . فلا ندري اليوم إذا كان اولئك الرجال من (مكة) أو من موضع آخر ، أو من عشيرة عرفت بـ (مكت) (مكة) . لذلك لا نستطيع ان نقول ان لهذه التسمية صلة بمكة .

ولم يشر الأخباريون ولا من كتب في تأريخ مكة الى هذا الاسم الذي ذكره (بطلميوس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وإنما أشار الى اسم آخر هو (بكة) . وقد ذكر هذا الاسم في القرآن [1] . قالوا إنه اسم مكة ، أبدلت فيه الميم باءً ، وقال بعض الأخباريين : إنه بطن مكة ، وتشدد بعضهم وتزمت ، فقال : بكة موضع البيت ، ومكة ما وراءه ، وقال آخرون : لا . والصحيح البيت مكة وما والاه بكة ، واحتاجوا الى ايجاد اجوبة في معنى اسم مكة وبكة ، فأوجدوا للاسمين معاني وتفاسير عديدة تجدها في كتب اللغة والبلدان وأخبار مكة [2] .

وذكر أهل الأخبار ان مكة عرفت بأسماء اخرى ، منها : صلاح ، لأمنها ، ورووا في ذلك شعراً لأبي سفيان بن حرب بن أمية [3] ، ومنها أم رحم ، والباسّة ، والناسّة [4] . والحاطمة . و (كوثى) [5] . وذكرت في القرآن الكريم

---

١ آل عمران : الآية ٦٩ ، (وتسمى بكة ، نبك أعناق البغايا اذا بغوا فيها ، والجبابرة)، الطبري (٢/٢٨٤) ، نزهة الجليس (١/٢٧) .

٢ المفردات ، للاصفهاني (ص ٥٦ وما بعدها) ، البلدان (٢/٢٥٦ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، تاج العروس (٧/١٧٩) ، الصحاح ، للجوهري (٤/١٦٠٩)، القاموس (٣/٣١٩) ، أخبار مكة (١/١٨٨) ، ابن هشام ، سيرة (١/١٢٥ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٣/٤٧٧ وما بعدها) ، البلدان (٨/١٣٤) ، نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٣ بلوغ الأرب (١/٢٢٨) ، القاموس المحيط (١/٢٣٥) ، فتوح البلدان (١/٦٠ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٥٧ وما بعدها) .

٤ بلوغ الأرب (١/٢٨٨) ، الطبري (٢/٢٨٤) ، أخبار مكة (١/١٨٩ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، القاموس (١/٢٣٩) .

٥ القاموس المحيط (٣/٩٧) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، أخبار مكة (١/١٨٩) .

بـ (أم القرى) [1] .

ولعلماء اللغة بعد ، تفاسير عديدة لمعنى (مكة) [2] ، يظهر من غربلتها انها من هذا النوع المألوف الوارد عنهم في تفسير الأسماء القديمة التي ليس لهم علم بها ، فلجئوا من ثم الى هذا التفسير والتأويل . ولا استبعد وجود صلة بين لفظة مكة ولفظة (مكربة) التي عرفنا معناها . ولا استبعد ان يكون سكان مكة القدامى هم من أصل يماني في القديم ، فقد أسس أهل اليمن مستوطنات على الطريق الممتد من اليمن الى أعالي الحجاز ، حيث حكموا أعالي الحجاز وذلك قبل الميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فلا يستبعد ان تكون مكة احداها . ثم انضم اليهم العرب العدنانيون ، ولأهل الأخبار روايات تؤيد هذا الرأي .

وقد ذهب (دوزي) الى ان تأريخ مكة يرتقي الى أيام (داوود) ففي أيامه — على رأيه أنشأ (الشمعونيون) (السمعونيون) ، الكعبة وهم (بنو جرهم) عند أهل الأخبار [3] . وهو يخالف بذلك رأي (كيبن) (GIBBON) ، ورأي جماعة من المستشرقين رأت ان مكة لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الأول قبل الميلاد ، مستدلةً على ذلك بما ورد في تأريخ (ديودورس الصقلي) من وجود معبد ، ذكر عنه انه كان محجة لجميع العرب ، وان الناس كانوا يحجون اليه من أماكن مختلفة . ولم يذكر (ديودورس) اسم المعبد ، ولكن هذه الجماعة من المستشرقين رأت ان هذا الوصف ينطبق على الكعبة كل الانطباق ، وان (ديودورس) قصدها بالذات [4] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان (العماليق) كانوا قد انتشروا في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ، وعتوا عتوّاً كبيراً . فبعث اليهم موسى جنداً

---

١ الأنعام ، السورة ، الرقم ٦ ، الآية ٩٢ ، الكشاف (٢/٢٥) ، البيضاوي (١٨٤) ، تفسير ابن عباس (١٠٧) ، نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٢ تاج العروس (٧/١٧٩) ، (مكّ) .

٣ R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, S., 15.

٤ Dozy, Die Israeliten, S., 13. Gibbon, History of the Decline and fall of the Roman Empire, Cha., 50. Cussin De Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes Avant L'Islamisme, I, P. 174.

فقتلوهم بالحجاز . وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق [1] . ويظهر انهم أخذوا أخبارهم هذه من اليهود ، ففي التوراة ان العماليق (العمالقة) ، هم أول الشعوب التي حاربت العبرانيين ، لما همّوا بدخول فلسطين ، وقد حاربهم موسى ، فوسع يهود الحجاز هذه القصة ونقلوا حرب موسى مع العمالقة الى الحجاز ليرجعوا زمان استيطانهم في الحجاز الى ذلك العهد .

ثم جاءت (جرهم) فنزلت على قطورا ، وكان على (قطورا) يومئذ (السميدع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاض ابن عمر بن الرقيب بن هاني بن نبت بن برهم) فنزلوا بـ (قعيقعان) . وكانت قطورا بأسفل مكة ، وكان (مضاض) يعشر من دخل مكة من أعلاها ، و (السميدع) من أسفلها . ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع) .

وجرهم قوم من اليمن ، فهم قحطانيون إذن ، جدهم هو ابن (يقطن بن عابر بن شالخ) : وهم بنو عم (يعرب) . كانوا باليمن وتكلموا بالعربية ، ثم غادروها فجاؤوا مكة [2] .

والعمالقة من الشعوب المذكورة في (التوراة) ، وقد عدّهم (بلعام) (أول الشعوب) [3] . وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي (طور سيناء) ، أيام الخروج ، وبقوا في أماكنهم هذه الى أيام (شاؤول) (SAUL) [4] . وقد تحدثت عنهم في الجزء الأول من هذا الكتاب [5] .

ومن جرهم تزوج (إسماعيل بن ابراهيم) على رواية الأخباريين ، وبلغتهم تكلم . وكانت (هاجر) قد جاءت به الى (مكة) . فلما شبّ وكبر ، تعلم لغة جرهم ، وتكلم بها . وهم من (اليمن) في الأصل . وكانت لغتهم هي اللغة العربية [6] . تزوج امرأة أولى قالوا إن اسمها (حرا) وهي بنت (سعد بن

١ ابن رستة ، الاعلاق (٦٠ وما بعدها) .
٢ مروج الذهب (١/٥٤) .
٣ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، آية ٢٠ .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/١١٢ وما بعدها) .
٥ (ص ٣٤٥ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٩٧) .

عوف بن هنيء بن نبت بن جرهم) ، ثم طلقها بناءً على وصية أبيه ابراهيم له ، فتزوج امرأة أخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم) . وعاش نسله في جرهم ، والأمر على البيت لجرهم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر) ، وهم خزاعة في رأي بعض أهل الأخبار [1] .

وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب ، فانتزعت منها الملك ، وزحزحتها عن مكة ، وأقامت عمرو بن لحيّ — وهو منها — ملكاً عليها ، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن ، بسبب تنبؤ الكاهن بقرب انفجار السدّ ، في قصة يذكرها الأخباريون . وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت أيام عمرو بن الحارث وهو (أبو غبشان) (غبشان) ، فانتزع قصي منه الملك ، وأخذه من خزاعة لقريش [2] .

وكان (عمرو بن لحيّ) أول من نصب الأوثان وأدخل عبادة الأصنام الى العرب ، وغيّر دين التوحيد على زعم أهل الأخبار . ويظهر مما يرويه الأخباريون عنه انه كان كاهناً ، حكم قومه ووضع لهم سنن دينهم على طريقة حكم الكهان ، واستبدّ بأمر (مكة) وثبت ملك خزاعة بها . فهو مثل (قصيّ) الذي جاء بعده ، فأقام ملك (قريش) في هذه المدينة . ويظهر من بقاء خبره في ذاكرة أهل الأخبار ان أيامه لم تكن بعيدة عن الإسلام ، وان حكمه لمكة لم يكن بعيد عهد عن حكم (قصيّ) ، وان اليه يعود فضل تنحية (جرهم) عن مكة ، وانتزاع الحكم منهم ونقله الى قومه من (خزاعة) ، وذلك بمساعدة (بني اسماعيل) أسلاف (قريش) من (بني كنانة) [3] .

وهو أول رجل يصل الينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لمكة . حتى صيّر لهذه

١ الطبري (١/٢٥١ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/٤٢) ، ابن خلدون (٢/٣٣١ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٦٠) .

٢ ابن خلدون (٢/٣٣٢ وما بعدها) ، الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (١/٤٦ وما بعدها) ، (طبعة المطبعة الماجدية بمكة المكرمة) ، (ص ٥١ وما بعدها) (طبعة وستنفلد) ، (لايبزك ١٨٥٨ م) .

٣ الأصنام (ص ٥) .

المدينة شأن عند القبائل المجاورة . وذلك باتيانه بأصنام نحتت نحتاً جيداً بأيد فنية قديرة ، وعلى رأسها الصنم (هبل) ووضعهـا في البيت ، فجلب بذلك أنظار أهل مكة وأنظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها ، وبذلك كوّن للبيت شهرة بين الأعراب ، فصاروا يقدمون عليـه للتقرب الى (هبل) والى بقية الأصنام التي جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفي جوفه .

ومـن بطون خزاعـة : (بنو سلول) و (بنو حُبْشية بن كعب) ، و (بنو حليل) ، و (بنو ضاطر) . وكان (حُلَيْل) سادن الكعبـة ، فزوج ابنته (حبى) بقصي . و (بنو قمير) ومن (بني قمير) (الحجاج بن عامـر بن أقوم) شريف ، و (حلحـة بن عمرو بن كليب) : شريف ، و (قيس بن عمرو بن منقذ) الذي يقال له (ابن الحدادية) شاعر جاهلي[1] . و (المحترش) ، وهو (أبو غُبشان) الذي يزعمون انـه باع البيت مـن (قصي)[2] . ومن خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبـد العُزّى) ، شريف ، كتب اليه النبي يدعوه الى الإسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[3] .

(وكنانة) التي استعان بها (عمرو بن لحيّ) في تثبيت حكمه بمكة ، هي من القبائل العدنانية في عرف أهل الأنساب ، ومن مجموعة (مضر) . ولما استبد (عمرو بن لحيّ) ومن جاء بعـده بأمر مكة ، وأخذوا بأيديهم أمر مكة ، تركوا الى (كنانة) أموراً تخص مناسك الحج وشعائره ، وهي الإجازة بالناس يوم (عرفة) والإضافة والنسيّ . وهي أمور سأتحدث عنها في أثناء كلامي عن الحج .

ويذكر أهل الأخبار أن (الإسكندر) الأكبر دخل مكة ، وذلك أنه بعد أن خرج من السودان قطع البحر فانتهى الى ساحل (عدن) ، فخرج اليه (تبع الأقرن) ملك اليمن ، فأذعن له بالطاعة ، وأقرّ بالإتاوة ، وأدخله مدينة (صنعاء) ، فأنزله ، وألطف له من الطاف اليمن ، فأقام شهراً ، ثم سار الى (تهامة) ، وسكان مكة يومئذ خزاعة ، قد غلبوا عليها ، فدخل عليه (النضر بن كنانة) ،

---

١ الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٧٧) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٨٠) .

فعجب الإسكندر به وساعده ، فأخرج (خزاعة) عن مكة ، وأخلصها للنضر ، ولبني أبيه ، وحج الإسكندر ، وفرّق في ولد معد بن عدنان صلاتٍ وجوائزَ ، ثم قطع البحر يؤم الغرب .[1]

وإذا كان أهل الأخبـــار قد أدخلوا (الإسكندر) مكة ، وصيّروه رجلاً مؤمناً ، حاجاً من حجاج البيت الحرام ، فلا غرابة اذن إن جعلوا أسلاف الفرس فيمن قصد البيت وطاف به وعظمه وأهدى له . بعد أن صيّروا (ابراهيم) جداً من أجدادهم وربطوا نسب الفرس بالعرب العدنانيين . فقالوا : وكان آخر من حج منهم (ساسان بن بابك) ، وهو جدّ (أردشير) . فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل ، فقيل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها ، هو وغيره من فارس . واستدلوا على ذلك بشعر ، قالوا عنه : إنه من الشعر القديم . وبه افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام ، وقالوا : وقد كان (ساسان بن بابك) هذا ، أهدى غزالين من ذهب وجوهراً وسيوفـاً وذهباً كثيراً ، فقذفه ، فدفن في زمزم . وقد أنكروا أن يكون بنو جرهم قد دفنوا ذلك المال في بئر زمزم ، لأن جرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك اليها .[2]

ويزعم الأخباريون أن (حسان بن عبد كلال بن مثوب ذي حرث الحميري) ، (أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة الى اليمن ، ليجعـــل حج الناس عنده ببلاده ، فأقبل حتى نزل بنخلة فأغار على سرح الناس ، ومنع الطريق ، وهاب أن يدخل مكة . فلما رأت ذلك قريش وقبائل كنانة وأسد وجذام ومن كان معهم من أفناء مضر ، خرجوا اليه ، ورئيس الناس يومئذ فهر بن مالك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير ، وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير ، أسره الحارث بن فهر ، وقتل في المعركة — فيمن قتل من الناس — ابن ابنة قيس بن غالب بن فهر ، وكان حسان عندهم بمكة أسيراً ثلاث سنين ، حتى افتـــدى منهم نفسه ، فخرج به ، فمات بين مكة واليمن) .[3]

ويشير هذا الحادث إن صحّ وقوعه وصدق ما رواه أهل الأخبار عنه ، الى

---

١ الأخبار الطوال (٣٣ وما بعدها) .
٢ مروج (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (ذكر ملوك الطوائف) .
٣ الطبري (٢/٢٦٢ وما بعدها) .

طمع الملك (حسان) والى خطة وضعها للاستيلاء عليها . وهو شيء مألوف ، فقد كانت قبائل اليمن تتجه دوماً نحو الشمال ، غير أن أهل مكة قاوموا الملك وتمكنوا من الصمود تجاهه ، بل من التمكن من جيشه ومن الحاق هزيمة به .

ويذكر أهل الأخبار حادثاً آخر مشابهاً لهذا الحادث ، بل يظهر أنه الحادث نفسه وقد صيغ في صيغة أخرى ، خلاصته أن (الملوك الأربعة) الذين لعنهم النبي ، ولعن أختهم (أبضعة) ، ولم يذكروا أسماءهم ، لما هموا بنقل (الحجر الأسود) الى صنعاء ليقطعوا حج العرب عن البيت الحرام الى صنعاء ، وتوجهوا لذلك الى مكة ، فاجتمعت (كنانة) الى (فهر بن مالك بن النضر) ، فلقيهم ، فقاتلهم ، فقتل ابن لفهر ، يسمى الحارثة ، وقتل من الملوك الأربعة ثلاثة ، وأسر الرابع ، فلم يزل مأسوراً عند (فهر بن مالك) حتى مات .

وأما (أبضعة) ، فهي التي يقال لها (العنقفير) ، ملكت بعد اخوتها على زعم أهل الأخبار .[1]

ويشير الأخباريون الى احترام التبابعة لمكة ، فيذكرون مثلاً أن التبع (أسعد أبو كرب) الحميريّ وضع الكسوة على البيت الحرام ، وصنع له باباً ، ومنذ ذلك الحين جرت العادة بكسوة البيت ،[2] ويذكرون غير ذلك من أخبار تشير الى اهتمام التبابعة بمكة . أما نحن ، فلم يصل الى علمنا شيء من هذا الذي يرويه الأخبـاريون ، مدوّناً بالمسند ، كما أننا لا نعلم أن أصنام أهل اليمن كانت في مكة حتى يتعبد لها التبابعة . ولسنا الآن في وضع نتمكن فيه من إثبات هذا القصص الذي يرويه الأخباريون ، والذي قد يكون أوجد ، ليوحي أن ملوك اليمن كانوا يقدسون الكعبة ، وأن الكعبة هي كعبة جميع العرب قبل الإسلام .

ولا نملك اليوم أثراً جاهلياً استنبط منه علماء الآثار شيئاً عن تأريخ مكة قبل الإسلام ، ولذلك فكلّ ما ذكروه عنها هو من أخبار أهل الأخبار ، وأخبارهم عنها متناقضة متضاربة ، لعبت العواطف دوراً بارزاً في ظهورها . ولا يمكن لأحد أن يكتب في هذا اليوم شيئاً موثوقاً معقولاً ومقبولاً عن تأريخ هذه المدينة المقدسة في أيام الجاهلية القديمة ، لأنه لا يملك نصوصاً أثرية تعينه في التحدث عن ماضيها

١ الأخبار الطوال (ص ٣٩ وما بعدها) .

٢ وقد نسبوا الى الرسول أحاديث في هذا المعنى ، أعتقد أنها من الأحاديث الموضوعة ، راجع الأزرقي ، أخبار مكة (١/١٦٥) .

القديم . وأملنا الوحيد هو في المستقبل ، فلعلّ المستقبل يكون خيراً من الحاضر والماضي ، فيجود على الباحثين بآثار تمكنهم من تدوين تأريخ تلك المدينة ، تدويناً علمياً يفرح نفوس الملايين من الناس الذين يحجون اليها من مختلف أنحاء العالم ، ولكنهم لا يعرفون عن تأريخها القديم ، غير هذا المدوّن عنها في كتب أهل الأخبار .

وإذا كنا في جهل من أمر تأريخ مكة قبل أيام (قصيّ) وقبل تمركز قريش في مكة ، فإن جهلنا هذا لا يجوّز لنا القول بأن تأريخها لم يبدأ إلا بظهور قريش فيها وبتزعم قصيّ لها . وان ما يروى من تأريخها عن قبل هذه المدة هو قصص لا يعبأ به . لأن ما يورده أهل الأخبار من روايات تفيد عثور أهل مكة قبل أيام الرسول على قبور قديمة وعلى حليّ وكنوز مطمورة وكتابات غريبة عليهم ، يدل كل ذلك على ان المدينة كانت مأهولة قبل أيام قصي بزمن طويل ، وان مكة كانت موجودة قبل هذا التأريخ . وان تأريخها لذلك لم يبدأ بابتداء ظهور أمر قصيّ ونزول قريش مكة في عهده .

وتأريخ مكة حتى في أيام قصيّ وما بعدها الى ظهور الإسلام لا يخلو مع ذلك من غموض ومن لبس وتناقض . شأنه في ذلك شأن أي تأريخ اعتمد على الروايات الشفوية ، واستمد مادته من أقوال الناس ومن ذكرياتهم عن الماضي البعيد . لذلك نجد الرواة يناقضون أنفسهم تناقضاً بيناً في أمر واحد ، ما كان في الإمكان الاختلاف فيه لو كانوا قد أخذوه من منبع قديم مكتوب . وسنرى في مواضع من هذا الكتاب وفي الأجزاء التي قد تتلوه عن تأريخ العرب في الإسلام نماذج وأمثلة تشير الى تباين روايات أهل الأخبار في أخبارهم عن مكة في تلك الأيام .

قريش :

و (قصيّ) من (قريش) . و (قريش) كلها من نسل رجل اسمه (فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان) . فهي من القبائل العدنانية . أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب . ومن (فهر) فما بعده عرف اسم (قريش) في رأي أهل الأخبار . أما ما قبل (فهر) من آباء فلم يعرفوا بقريش . فقريش إذن هم (فهر)

وأبناؤه ، من سكان مكة أو من سكان ظواهرها ، أي كل من انحدر من صلبه من أبناء .[1] وما كان فوق (فهر) فليس يقال له (قرشي) ، وإنما يقال له كناني .[2]

ومعارفنا عن (قريش) لا بأس بها بالنسبة الى معارفنا عن خزاعة وعن من تقدم عليها من قبائل ذكَر أهل الأخبار أنها سكنت هذه المدينة . وتبدأ هذه المعرفة بها ، ابتداءً من (قُصَيّ) زعيم قريش ومجمّعها ، والذي أخذ أمر مكة فوضعه في يديه ، ثم في أيدي أولاده من بعده ، فصارت (قريش) بذلك صاحبة مكة .

وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل . وتمكن رجالها بفضل ذكائهم وحذقهم بأسلوب التعامل من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهـــد : الفرس والروم والحبشة ، وبحكومة الحيرة والغساسنة ، وبسادات القبائل ، ومن تكوين علاقات طيبة معها ، مع تنافر هذه الدول وتباغضها . كما تمكنوا من عقد أحلاف مع سادات القبائل ، ضمنت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمأنينة في كل أنحاء جزيرة العرب . والطمأنينة ، أهم أمنية من أماني التاجر . وبذلك أمنوا على تجارتهم ، ونشروا تجارتهم في كل أنحاء جزيرة العرب . حتّى عرفوا بـ (قريش التجار) . جاء على لسان كاهنة من كهان اليمن قولها : (لله دَرُّ الديار ، لقريش التجار) .[3]

وليس لنا علم بتأريخ بدء اشتغال قريش بالتجارة واشتهارها بها . وروايات أهل الأخبار ، متضاربة في ذلك ، فبينما هي ترجع ظهور (قريش) بمكة الى أيام قصي ، ومعنى ذلك أن تجارة قريش إنما بدأت منذ ذلك الحين ، نراها ترجع تجارتها الى أيام النبي (هود) ، وتزعم أنه لما كان زمن (عمرو ذي الأذعار الحميري) ، كشفت الريح عن قبر هذا النبي ، فوجدوا صخرة على قبره كتب عليهـــا بالمسند : (لمن ملك ذمار ؟ لحمير الأخيار . لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار) .[4] والرواية أسطورة موضوعة ، ولكنها تشير الى أن اشتغال قريش بالتجارة يرجع

---

١ البلاذري ، أنساب (١/٣٩) ، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (٩) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٥٥) .

٣ رسائل الجاحظ ، (جمع السندوبي) ، (ص ١٥٦) (المطبعـــة الرحمـــانية ، ١٩٥٨ م) .

٤ الاكليل ، الجزء الثامن (خبر آخر عن قبر هود وقبر قضاعة بن مالك بن حمير) .

الى عهد قـديم ، عجز اصحاب هذه الرواية عن ادراك وقته ، فوضعوه في أيام هود .

ثم نرى روايات أخرى ترجع بدء اشتهار قريش التجارة الى ايام (هاشم) ، وهي تزعم ان تجارة قريش كانت منحصرة في مكة ، يتاجر اهلها بعضهم مع بعض ، فتقدم العجم عليهم بالسلع ، فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها لمن حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب (هاشم بن عبد مناف) فنزل بقيصر ، وتعاقد معه على ان يسمح له ولتجار قريش بالاتجار مع بلاد الشام، فوافق على ذلك ، وأعطاه كتاباً بذلك . فلما عاد ، جعل كلما مرّ بحيّ من العرب بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم إيلافاً ، اي عقد امان ، فضمن بذلك لقومه حرية الاتجار بأمن وسلام . واشتهرت قريش بالتجارة منذ ذلك العهد . [1]

وقد علّمت الأسفار سادة قريش اموراً كثيرة من امور الحضارة والثقافة . فقد أرتهم بلاداً غريبة ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق وبعرب بلاد الشام ، فتعلموا من (الحيرة) اصول كتابتهم ، وهذّبوا لسانهم ، ودوّنوا به امورهم . وذكر انهم كانوا من افصح العرب لساناً ، وقد شهد العرب لهم بفصاحـة اللسان ، حتى ان الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم ، وذكر ان الشاعر (علقمة الفحل) عرض عليهم شعره ، فوصفوه بـ (سمط الدهر) . [2]

وقد علّمت الطبيعة أهل مكة انهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمين رزقهم في هذا الوادي الجاف ، إلا إذا عاشوا هادئين مسالمين ، يدفعون الإساءة بالحسنة ، والشر بالصبر والحلم ، والكلام السيء البذيء بالكلام الحسن المقنع المخجل . فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية ، وجاءت نجدتهم في نصرة الغريب والذب عن المظلوم والدفاع عن حق المستجير بهم ، بأحسن النتائج لهم ، فصار التاجر والبائع والمشتري يفد على سوق مكة ، يبيع ويشتري بكل حرية ، لانـه في بلد آمن ، أخذ سادته على أنفسهم عهداً بألا يتعدى أحد منهم على غريب ، لأن الإضرار به ، يبعد الغرباء عنهم ، وإذا ابتعد الغرباء عن مكـة ، خسروا جميعاً مورداً من موارد رزقهم : يعيش عليه كل واحد منهم بلا استثناء . لذلك

١ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .
٢ الأغاني (٢١/١١٢) .

كان الغريب إذا ظُلِمَ ، نادى يا آل قريش ، أو يا آل مكة أو يا آل فلان . ثم يذكر ظلامته ، فيقوم سادة مكة أو من نودي باسمه بأخذ حقه من الظالم له .

وقد اصطلحت قريش على ان تأخذ ممن ينزل عليها في الجاهلية حقاً . دعته : (حقّ قريش) وفي جملة ما كانوا يأخذونه من الغريب القادم اليهم عن هـذا الحق بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر . ويأتي أهل الأخبار بمثل على ذلك ، هو مثل : (ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وإنما سُمّي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحج ، فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد المغيرة ان يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهليـة ، وذلك سُمّي : الحريم . وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم)[1] . وظويلم منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان[2] .

وقد جعلت طبيعة هذا الوادي أهل مكة يميلون الى السلم ، ولا يركنون الى الحرب والغزو إلا دفاعاً عن نفس . وهو شيء منطقي محترم ، فأهـل مكة في وادٍ ضيق بين جبلين متقابلين ، وفي استطاعة الأعداء إنزال ضربات موجعة بهم من المرتفعات المسيطرة عليه ، وبسد منفذيه ، يحصر أهله فتنقطع عنهم كل وسائل المعيشة من ماء وطعام . لذلك لم يجدوا أمامهـم من سبيل سوى التجمل بالحـلم والصبر واتباع خطة الدفاع عن النفس ، بالاعتماد على أنفسهم وعلى غيرهـم من أحلافهم كالأحابيش حلفائهم وقريش الظواهر . وقد أدت هذه الخطة الى اتهام قريش انها لا تحسن القتال ، وانها إن حاربت خسرت ، وانها كانت تخسر في الحروب ــ فخسرت ثلاثة حروب من حروب الفجار الأربعة ، الى غير ذلك من تهم . ولكن ذلك لا يعني ان في طبع رجال قريش جبناً ، وان من سجية قريش الخوف . وإنما هو حاصل طبيعة مكان ، واملاء ضرورات الحياة ، لتأمين الرزق . ولو ان أهل مكة عاشوا في موضع آخر ، لما صاروا أقل شجاعة وأقل اقبالاً في الاندفاع نحو الحرب والغزو من القبائل الأخرى .

وقد تمكنت مكة في نهايـة القرن السادس وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة ، صيّرتها من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة

---

١ الاشتقاق (ص ١٧١ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (١٧٢) .

وفي اقراض المال للمحتاج اليه . كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة ، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لان تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت أغنيائه من ترف وبذخ وخدم واسراف .

وقد ذكر (الثعالبي) ان قريشاً صاروا (أدهى العرب ، وأعقل البرية ، وأحسن الناس بياناً) لاختلاطهم بغيرهم ولاتصالهم بكثير من القبائل فأخذوا عن كل قوم شيئاً ، ثم انهم كانوا تجاراً (والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق والتدقيق) ، وكانوا متشددين في دينهم حسباً ، (فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال) الى غير ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة[1] . وقد أشيد ايضاً بصحة اجسامهم وبجمالهم حتى ضرب المثل بجمالهم فقيل : (جمال قريش)[2] .

وقصيّ رئيس قريش ، هو الذي ثبت الملك في عقبه ، ونظم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولها وحدها الهيمنة على هذه المدينة ، حتى عرف سكانها بـ (آل قصي) ، فكان أحدهم اذا استغاث او استنجد بأحد ، صاح : (يا لَقصيّ) ، كناية عن انهم (آل قصيّ) . جامع قريش[3] .

وهو أول رئيس من رؤساء مكة يمكن ان نقول إن حديثنا عنه ، هو حديث عن شخص عاش حقاً وعمل عملاً في هذه المدينة التي صارت قبلة الملايين من البشر فيما بعد . فهو إذن من الممهدين العاملين المكونين لهذه القبلة ، وهو أول رجل نتكلم عن بعض أعماله ونحن واثقون مما نكتبه عنه ونقوله . وهو أول شخص نقض البيوت المتنقلة التي لم تكن تقي أصحابها شيئاً من برد ولا حرّ ، والتي كانت على أطراف الوادي وبين أشجار الحرم ، وكأنها تريد حراسة البيت ، وحوّلها من خيام مهلهلة الى بيوت مستقرة ثابتة ذات أعمدة من خشب شجر الحرم ، وذات سقوف .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٢٩) .
٣ يال- قصيّ لمظلوم بضاعنه ببطن مكة نائي الدار والنفر
الأحكام السلطانية (ص ٧٨ وما بعدها) .

ولم نعثر حتى الآن على اسم قريش أهل مكة في نص جاهلي . كذلك لم نعثر عليه أو على اسم مقارب له في كتب اليونان أو اللاتين أو قدمـاء السريان ممن عاشوا قبل الإسلام . فليس في امكاننا ذكر زمن جاهلي نقول اننا عثرنا فيه على اسم قريش ، وانها كانت معروفة يومئذ فيه .

وقد وردت لفظة (قريش) اسماً لرجل عرف بـ (حَبْسل قريش) . وذلك في نص حضرميّ من أيام الملك (العز) ملك حضرموت [1] .

هذا ، وان لأهل الأخبار كلاماً في سبب تسمية قريش بقريش ، (فقيل : سُمّيت بقريش بن بدر بن مخلد بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة ، لأن عير بني النضر كانت اذا قـدمت ، قالت العرب : قد جاءت عير قريش ، قالوا : وكان قريش هذا دليل النضر في أسفارهم ، وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمى بدراً ، احتفر بدراً ، قالوا فيه سميت البئر التي تدعى بدراً ، بدراً . وقال ابن الكلبي : انما قريش جماع نسب ، ليس بأب ولا بأم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون : انمـا سُمي بنو النضر من كنانة قريشاً ، لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه ، فقال بعضهم لبعض : انظروا الى النضر ، كأنه جمل قريش .

وقيل : إنما سميت بدابّة تكون في البحر تأكل دواب البحر ، تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها ، لأنها أعظم دواب البحر قوة [2] .

وقيل : إن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس ، فيسدها بماله ، والتقريش — فيما زعموا — التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجـة فيسدّونها بما يبلّغهم [3] . (وقيل إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً . وقيل : بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصيّ بن كلاب ، فقيل لهم : قريش ، من أجل ان التجمع هو التقرش ، فقالت العرب : تقرش

١ تأريخ العرب في الاسلام (١/٤١) .
٢ وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا . تفسير الطبري (٢٥/ ١٩٩) .
٣ الطبري (٢/٢٦٣ وما بعدها) .

بنو النضر ، أي قد تجمعوا . وقيل : إنما قيل قريش من أجل انهـا تقرشت عن الغارات)[1] .

وذكر ان قريشاً كانت تدعى (النضر بن كنانة) ، وكانوا متفرقـين في (بني كنانة) ، فجمعهـم (قصيّ بن كلاب) ، فسموا قريشاً ، التقرش التجمع . وسُمّي قصي مجمّعاً . قال حذافة بن غانم بن عامر القرشي ثم العدوي :

قُصيٌّ أبوكم كان يدعى مجمعاً بـه جمع الله القبائل من فهر[2]

وذكر ان قريشاً إنما قيل لهم (قريش) لتجمّعهم في الحرم من حوالي الكعبة بعد تفرقهم في البلاد حين غلب عليها (قصي بن كلاب) . يقال تقرش القوم إذا اجتمعوا . قالوا وبه سمّي قصي مجمعاً . أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعـات فيشترونها ، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً ، فقالوا تقرش ، فغلب عليه اللقب ، أو لأنه جاء الى قومه يوماً ، فقالوا كأنه جمل قريش أي شديد ، فلُقب به ، أو لأن قصياً كان يقال له القرشي ، وهو الذي سمّاهم بهذا الاسم ، أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدّون خلتها ، فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ومن كان معدماً كسوه ومن كان طريداً آووه ، أو سمّوا بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون : قدمت عير قريش وخرجت عير قريش ، فلقبوه به . أو نسبة الى (قريش بن الحرث بن مخلد بن النضر) ، والد (بدر) ، وكان دليلاً لبني (فهر بن مـالك) في الجاهلية ، فكانت عيرهم إذا وردت (بدراً) ، يقال : قد جاءت عير قريش، يضيفونها الى الرجل حتى مات . أو لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع . أو الى قريش بن بدر بن مخلد بن النضر . وكان دليل بني كنانة في تجارتهم ، فكان يقال : قدمت عير قريش . فسميت قريش بذلك . وأبوه بدر بن مخلد ، صاحب بدر ، الموضع المعروف[3] .

١ الطبري (٢/٢٦٤) ، ابن كير ، البداية (٢/٢٠١) .
٢ العقد الفريد (٣/٣١٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (فرش) ، كتاب نسب فريش ، للزبيري (ص ١٢) .

ونعتت قريش بـ (آل الله) و (جيران الله) و (سكان حرم الله) [1] . وبـ (أهل الله) [2] .

الى غير ذلك من آراء حصرها بعضهم في عشرين قولاً في تفسير معنى لفظة (قريش) ومن أين جاء أصلها . تجدها في بطون الكتب التي أشرت اليها في الحواشي . وفي موارد أخرى . وهي كلها تدل على ان أهل الأخبار كانوا حيارى في أمر هذه التسمية ، ولما كان من شأنهم ايجاد أصل وفصل ونسب وسبب لكل اسم وتسمية ، كما فعلوا مع التسميات القديمة ، ومنها تسميات قديمة تعود الى ما قبل الميلاد ، أوجدوا على طريقتهم تلك التعليلات والتفسيرات لمعنى (قريش) . وقد نجد هذه التعليلات تروى وتنسب الى شخص واحد كابن الكلبي مثلاً ، وهو ينسب روايتها عادة الى رواة تقدموا عليه أو عاصروه ، وقد لا يرجعها الى أحد ، وربما كانت من وضعه وصنعته أو من اجتهاده الخاص في ايجاد علل للمسميات [3] .

فهذا هو مجمل آراء أهل الأخبار في معنى اسم قريش .

أما رأيهم في أول زمن ظهرت فيه التسمية ، فقد اختلف في ذلك وتباين أيضاً . فذكر قوم (ان عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير : متى سميت قريش قريشاً ؟ قال : حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع التقرش . فقال عبد الملك : ما سمعت هذا ، ولكن سمعت ان قصياً كان يقال له القرشي ، ولم تسمّ قريش قبله) . وورد : (لما نزل قصيّ الحرم وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلة ، فقيل له : القرشي ، فهو أول من سُمّي به) . وورد أيضاً ان (النضر بن كنانة كان يسمى القرشيّ) [4] .

وقد نسب الى عليّ وابن عباس قولها ان قريشاً حي من النبط من أهل كوثى [5] . وإذا صح ان هذا القول هو منهما حقاً ، فإن ذلك يدل على انهما قصدا بالنبط (نبايوت) : وهو (ابن اسماعيل) في التوراة . واما (كوثى)

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٦) ، تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .
٤ الطبري (٢/٢٦٤ وما بعدها) .
٥ البرفوفي (ص ٢٢٨) .

فقصدا بذلك موطن ابراهيم ، وهو من أهل العراق على رواية التواراة أيضاً . ولعلها أخذا هذا الرأي من أهل الكتاب في يثرب .

ويذكر أن جذم قريش كلها (فهر بن مالك) فما دونه قريش وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر . وأما قبائل قريش ، فانما تنتهي الى فهر بن مالك لا تجاوزه[1] . ومن جاوز (فهراً) ، فليس من قريش[2] . ومعنى هذا ان جذم قريش من أيام (فهر بن مالك) فما فوقه ، كانت متبدية تعيش عيشة أعرابية ، فلما كانت أيام (فهر) أخذت تميل الى الاستقرار والاستيطان ، ولما استقرت وأقامت في مواضعها عرفت بـ (قريش) .

وذكر ان قريشاً قبيلة ، وأبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد (النضر) ، فهو (قرشي) دون ولد كنانة ومن فوقه . وورد كل من لم يلده (فهر) فليس بقرشي . وهو المرجوع اليه[3] .

وقد صيرت رابطة النسب هذه قريشاً قبيلة تامة تقيم مجتمعة في أرض محدودة ، وبصورة مستقرة في بيوت ثابتة فيها بيوت من حجر ، بين أفرادها وأسرها وبطونها عصبية ، وبينهم تعاون وتضامن . كما جعلت أهل مكة في تعاون وثيق فيما بينهم في التجارة ، حتى كادوا يكونون وكأنهم شركاء مساهمون في شركة تجارية عامة . يساهم فيها كل من يجد عنده شيئاً من مال ، وإن حصل عليه عن طريق الاقتراض والربا ، ليكون له نصيب من الأرباح التي تأتي بها شركات مكة .

ويقسم أهل الأخبار قريشاً الى : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . ويذكرون ان قريش البطاح بيوت ، منهم : بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار ، وبنو عبد العزّى ، وبنو عبد بن قصيّ بن كلاب ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح ابنا عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الأرب (١٦/١٥) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .

مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر . وبنو عتيك بن عامر بن لؤي [1] . و (قصي) هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح ، فسُمّوا البطاح [2] . ودخل (بنو حسل ابن عامر) مكة بعد ، فصاروا مع قريش البطاح ، فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء [3] .

ويذكر أهـــل الأخبار ان (قريش البطاح) ، الذين ينزلون أباطح مكـــة وبطحاءها . أو هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة . وأخشبا مكة جبلاها : أبو قبيس والذي يقابله . ويقال لهم قريش الأباطح وقريش البطاح ، لأنهم صبابـــة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاء مكة ونزلوها [4] . وهـــم أشرف وأكرم من قريش الظواهر . ذكروا ان سادة قريش نزول ببطن مكة ، ومن كان دونهم ، فهم نزول بظواهر جبالها ، أي قريش الظواهر [5] .

اما قريش الظواهر : فهم : بنو معيص بن عامر بن لؤي ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر ، والحارث ابنا فهر ، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة ، وبني هلال بن مالك بن ضبة [6] . وعامة بني عامر بن لؤي ، وغيره [7] . عرفوا جميعاً بقريش الظواهر ، لأنهم لم يهبطوا مع قصيّ الأبطح . الا ان رهط (أبي عبيدة ابن الجراح) ، وهم من (بني الحارث بن فهر) ، نزلوا الأبطح فهم مـــع المطيّبين أهل البطاح [8] . وورد ان (بني الأدرم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد) [9] .

١ المحبر (ص ١٦٧ وما بعدها) ، العمدة (١٩٣/٢) ، رسائل الجاحظ، (ص ١٥٦ (السندوبي) ، (المطبعة الرحمانيـــة ١٩٣٣ م) ، مـــروج الذهب (٥٨/١ (١٩٥٨ م) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٧١/١) .

٣ البلاذري ، أنساب (٤٠/١) .

٤ فلو شهدتنـي من قريش عصـــابة قريش البطـاح لا قريش الظـــواهر
تاج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) .

٥ تاج العروس (٣٧٢/٣) ، (ظهر) .

٦ المحبر (١٦٨) ، البلاذري ، أنساب (٣٩/١) ، التعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) .

٧ العمدة (١٩٤/٢) .

٨ ابن سعد ، طبقات (٧١/١) .

٩ نهاية الأرب (١٧/١٦) .

ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح ، انهم إنما سُموا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح ، فأقاموا هناك[1] . فهم مستقرون حضر ، وقد أقاموا في بيوت مهما كانت فإنها مستقرة ، وقد انصرفوا الى التجارة وخدمة البيت . فصاروا أصحاب مال وغنى ، وملكوا الأملاك في خارج مكة ، ولا سيما الطائف ، كما ملكوا الإبـــل ، وقد تركوا رعيهـــا للأعراب . وعرفوا أيضاً بقريش الضبّ للزومهم الحرم[2] .

واما قريش الظواهر[3] ، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها ، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً ، أي انهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر . وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال ، وانهم يقاتلون عنهم وعن البيت . ولكنهم كانوا دون (قريش البطاح) في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه ، لأنهم أعراب فقراء ، لم يكن لهم عمل يعتاشون منه غير الرعي . وكانوا دونهـــم في مستوى المعيشة بكثير وفي الوجاهة بين القبائل . ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب ، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر ، إلا انهم كانوا يحقدون على ذوي أرحامهم على مـــا أوتوا من غنى ومال وما نالوه من منزلة ، ويحسدونهم على ما حصلوا عليه من مكانة دون ان يعملوا على رفع مستواهم ، وترقية حالهم ، والاقتداء بذوي رحمهم أهل الوادي في اتخاذ الوسائل التي ضمنت لهم التفوق عليهم وفي جلب الغنى والمال لهم . كان شأنهم في ذلك شأن الحساد الذين يعيشون على حسدهم ، ولا يبحثون عن وسائل ترفعهم الى مصافّ من يحسدونه . ولعل نظرتهم الجاهلة الى أنفسهـــم من انهم أعلى وأجل شأناً ممن يحسدونهم ، وإن كانوا دونهم في نظر الناس في المنزلة والمكانـــة ، حالت دون تحسين حالهـــم والتفوق على المحسود بالجـــد والعمل ، لا بالاكتفاء بالحسد وبالتشدق بالقول والمباهاة .

ويذكر أهل الأخبار ان قسماً ثالثاً من قريش ، لم ينزل بمكة ولا بأطرافها ،

---

١ المحبر (١٦٨) .

٢ ابن الأثير (٨/٢) ، البلاذري ، أنساب (٣٩/١) .

٣ (قريش الطواهر الذين ينزلون خارج الشعب) ، تاج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) ، البلاذري ، أنساب (٣٩/١) ، (كانوا يفخرون على قريش الظواهر لظهورهم للعدو ، ولقائهم المناسر) ، البلاذري ، أنساب (٤٠/١) .

وانما هبط أماكن أخرى ، فاستقر بها ، وتحالف مع القبائل التي نزل بينها . من هؤلاء : سامة بن لؤى ، وقع الى عمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمان . والحارث ابن لؤي وقع الى عُمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمـــان . والحارث بن لؤي ، وقع الى اليمامة ، فهـــم في بني هزان من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار . والحـــارث ، هو جُشَم . وخزيمـــة بن لؤي ، وقعوا بالجزيـــرة الى بني الحارث بن همام بن مرة بن ذهـــل بن شيبان وسعد بن لؤي ، وبنو عوف بن لؤي ، وقعوا الى غطفان ولحقوا بهم ، ويقال لبني سعد بن لؤي بنانة ، وبنانة أمهم ، فأهل الباديـــة منهم . وأهل الحاضرة ينتمون الى قريش . ويقال لبني خزيمة بن لؤي : عائذة قريش . وكان عثمان بن عفان ألحق هذه القبائل ، حين استخلف بقريش[1] .

ويلاحظ ان هذا الصنف من أصناف قريش ، هو من نسل (لؤي) ، أي : من نسل (لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر) . وقد تباعدت مواطنهم عن قريش .

ومن قريش الظواهر : بنو الأدرم من نسل الأدرم ، وهو تيم بن غالب ، ومن رجالهم : عوف بن دهر بن تيم الشاعر ، وهو أحد شعراء قريش . وهلال ابن عبد الله بن عبد مناف ، وهو صاحب القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ، وهو ابن الخطل الذي كان يؤذي النبي وارتد فأهدر النبي دمه يوم الفتح ، قتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة ، أو سعد بن حريث المخزومي على رواية قريش[2] . ومن قريش الظواهـــر أيضاً : بنو محارب ، والحارث بن فهر وبنو هصيص بن عامر بن لؤي .

ولم يكن أهل مكة كلهم من قريش ، بل ساكنهم أيضاً من كان بها قبلهم ، مثل خزاعة وبنو كنانة . وقريش وإن كانت من (كنانة) ، إلا انهـــا ميزت نفسها عنها ، وفرقت بينها وبين كنانة . ولكنانة إخوة منهم : أسد وأسده ، ووالدهم هو (خزيمة) وهو جدّ من أجداد قريش ، كما ان (كنانـة) هو

١ المحبر (ص ١٦٨ وما بعدها) ، الطبرى (٢/٢٦١) ، (وفي قريـــش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية) ، تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .

٢ الاشتقاق (ص ٦٦) .

جد من أجدادهم . وللأخباريين رأي في معنى كنانة[1] .

وقد عرفت قريش بين أهل الحجاز بسخينة . والسخينة طعام رقيق يتخذ من سمن ودقيق . وقيل دقيق وتمر — وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء . وانما لقبت قريش بسخينة لاتخاذها اياه ، أي لأنهم كانوا يكثرون من أكلها ولذا كانت تعيَّر به[2] .

الأحابيش :

ومن أهل مكة جماعة عرفت بـ (الأحابيش) . ذكر أهل الأخبار انهم حلفاء قريش ، وهم : بنو المصطلق ، والحياء بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون ابن خزيمة . اجتمعوا بذنب حبشي — وهو جبل بأسفل مكة — فتحالفوا بالله إنا ليَدٌ على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار ، وما أرسى حبشي مكانه . وقيل : إنما سُمّوا بذلك لاجتماعهم . والتحابش : هو التجمع في كلام العرب[3] . وذكر انهم اجتمعوا عند (حبشي) فحالفوا قريشاً . وقيل : أحياء من القارة انضموا الى (بني ليث) في الحرب التي نشبت بينهم وبين قريش قبل الإسلام ، فقال إبليس لقريش : إني جارٌ لكم من بني ليث فواقعوا دماً ، سُمّوا بذلك لاسودادهم ، قال :

ليث وديل وكعب والذي ظأرت جمع الأحابيش ، لما احمرت الحدقُ

١ الاشتقاق (ص ١٨) ، الطبرى (٢/٢٦٦) .

٢ (وفي الحديث أنه دخل على حمزة ، رضى الله تعالى عنه . فصنعت لهم سخينة فأكلوا منها . قال كعب بن مالك :

زعمت سُخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

وفي حديث معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، انه مازح الأحنف بن قيس ، فقال : ما الشيء الملفف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمير المؤمنين ! الملفف في البجاد : وطب اللبن يلف به ليحمى ويدرك . وكانت تميم تعير به . والسخينة الحساء المذكور يؤكل في الجدب ، وكانت قريش تعير بها . فلما مازحه معاوية بما عاب به قومه مازحه الأحنف بمثله) ، تاج العروس (٩/٢٣٢) .

٣ العمدة (٢/١٩٤) ، اللسان (٦/٢٧٨) ، (حبش) .

فلما سميت تلك الأحياء (الأحابيش) من قبل تجمعها ، صار التحبيش في الكلام كالتجميع . [1]

وورد ان (عبد مناف) و (عمرو بن هلال بن معيط الكناني) ، عقدا حلف الأحابيش . والأحابيش ، بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون بن خزيمة بن مدركة ، وكانوا مع قريش . [2] وقيل ايضاً ان الأحابيش ، هم : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وعضل ، والديش من بني الهون بن خزيمة ، والمصطلق ، والحيا من خزاعة . [3]

وقد وصف (اليعقوبي) (حلف الأحابيش) بقوله : (ولما كبر عبد مناف ابن قصي جاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، يسألونه الحلف ليعزوا به . فعقد بينهم الحلف الذي يقال له : حلف الأحابيش . وكان مُدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هلل (هلال) بن معيص ابن عامر . وكان تحالف الأحابيش على الركن . يقوم رجل من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان ايديهما على الركن ، فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ، ما بلّ بحرٌ صوفة ، وما قام حر او ثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة . فسمي حلف الأحابيش) . [4]

وقد ذُكر أن (المطلب بن عبد مناف بن قصي) ، قاد بني عبد مناف وأحلافها من الأحابيش ، وهم من ذكرت يوم ذات نكيف ، لحرب بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . [5] كما ورد ان (الأحابيش) ، الذين ذكرت اسماءهم ، كانوا يحضرون مع من يحضر من طوائف العرب مثل قريش وهوازن ، وغطفان ،

١ اللسان (٦/٢٧٨) .
٢ قال الشاعر :
ان عمـــراً وان عبد منـــاف جعلا الحلـف بيننـا أسـبابا
البلاذري ، أنساب (١/٥٢ ، ٧٦) .
٣ المحبر (ص ٢٤٦) .
٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .
٥ المحبر (ص ٢٤٦) .

وأسلم ، و (طوائف من العرب) سوق عكـــاظ ، فيبيعون ويشترون . [1] كما ذكر انهم كانوا مثل قريش يقدسون اسافاً ونائلة . [2]

وورد في بعض اخبـــار الأخباريين ، ان يوم (ذات نكيف) ، وقع بين قريش وبني كنانة . فهزمت قريش بني كنانة ، وعلى قريش عبد المطلب . [3] وقد بقي (الأحابيش) بمكة ، الى ايام الأمويين . فذكر ان (عبد الله المتكبر) ، وكان من اشراف قريش في ايام (معـــاوية) ومن اغناها مالاً ، لما وفد على (معاوية) وكان خليفة إذْ ذاك ، كلّمه في (قريش) ووجوب الاعتماد عليهم ثم في (الأحابيش) ، إذْ قال له عنهم : (وحلفاؤك من الأحابيش) قد عرفت نصرهم ومؤازرتهم ، فاخلطهم نفسك وقومك) . [4]

وقـــد بحث (لامانس) في موضوع الأحابيش ، فرأى انهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من افريقية ومن عرب مرتزقة ، كونتها مكة للدفاع عنها . وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع ، فمنهم من ايده ، ومنهم من توسط في رأيه ، ومنهم من ايد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها . وعندي رأي آخر ، قد يفسر لنا سبب تسمية (بني الحارث بن عبد مناة) من (كنانة) ومن ايدها من (بني المصطلق) و (بني الهون) بالأحابيش . هو ان من الممكن ان تكون هذه التسمية قد وردت اليهم من اجل خضوعهم لحكم الحبش ، وذلك قبل الإسلام بزمن طويل . فقد سبق ان ذكرت في الجزء الثالث من كتابي : (تأريخ العرب قبل الإسلام) ، وفي اثناء كلامي على (جغرافيا بطلميوس) ، [5] ان الساحل الذي ذكره (بطلميوس) باسم : (Cinaedocolpitae) انما هو ساحل (تهامة) وهو منازل (كنانة) . وقد بقي الحبش به وقتاً طويلاً . واختلطوا بسكانه . فيجوز ان تكون لفظة (الأحابيش) قد لحقت بعض (كنانة)

---

١ المحبر (ص ٢٦٧) .
٢ المحبر (٣١٨) .
٣ اللسان (٣٤٢/٩) ، (نكف) ، قال ابن سبلة الفهري :

فلله عينـــا من رأى من عصـــابة غـــوت غـــى بـــكر بوم ذات نكيف
أناخـــوا الى أبياتنـــا ونســـائنا فـــكانوا لنا ضيفـــا لشر مضيف

تاج العروس (٢٦١/٦) ، (نكف) .
٤ نسب قريش (٣٨٩) .
٥ (٣٩٣) .

من خضوعهم للحبش ، حتى صارت اللفظة لقباً لهم ، او علماً لكنانة ومن حالفها . ويجوز ان تكون قد لحقتهم ولحقت الآخرين معهم لتميزهم عن بقية (كنانة) ومن انضم اليهم ممن سكن خارج تهامة . او لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات ، حتى ظهرت السمرة على سحنهم . ولهذا وصفوا بالأحابيش فليس من اللازم اذن ان يكون (الأحابيش) ، هم كلهم من حبش افريقية ، بل كانوا عرباً وقوماً من العبيد والمرتزقة ممن امتلكهم اهل مكة . ومما يؤيد رأيي هذا هو ورود (من بني كنـــانة) مع اهل تهامة في اخبار معارك قريش مع الرسول . ففي معركة (أحد) ، نجد (الطبري) يقول : (فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين فعل ذلك ابو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن اطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة) .[1] ونجد مثل ذلك في اخبار معارك اخرى . مما يشير الى ان الأحابيش ، ليسوا عبيد افريقية حسب ، بل هم عرب وحبش ومرتزقة . وأن اولئك الأحابيش هم من ساحل تهامة في الغالب من كنانة،اي ممن اقام بذلك الساحل المستقر به من الحبش واندمج في العرب ، فصار من المستعربة الذين نسوا اصولهم وضاعت انسابهم ، واتخذوا لهم نسباً عربياً ،

وقد كان للأحابيش سادة يديرون امورهم ، منهم (ابن الدغنة) وهو (ربيعة بن رفيع بن حيّان بن ثعلبة السلمي) الذي اجار (ابا بكر) . وشهد معركة حنين .[2]

ومن سادات الأحابيش (الحليس بن يزيد) . ويظهر انه كان يتمتع بمنزلة محترمة بمكة . وقد ذكر (محمد بن حبيب) (الحليس) على هذه الصورة : (الحليس بن يزيد) . وذكر انه من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) . وكان من رؤساء حرب الفجار من قريش .[3] وذكره غيره على هذه الصورة : (وحليس بن علقمة الحارثي . سيد الأحابيش ورئيسهم يوم أُحد . وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) .[4]

وقد حارب الأحابيش مع قريش يوم أُحد ، وقـــد رأسهم (ابو عامر)

١ خبر (غزوة أحد) ، (فخرجت قريش بحدها وجدّها وأحابيشها ، ومن معها من بني كنانة وأهل تهامة) ، الطبري (٥٠١/١٢) .
٢ تاج العروس (٢٠٠/٩) ، (دغن) .
٣ المحبر (١٦٩ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١٣٠/٤) ، (حلس) .

المعروف بـ (الراهب) .[1] وقاتل بهم ، مع ان رئيسهم وسيدهم اذ ذاك هو (الحليس بن زبان) أخو (بني الحارث بن عبد مناة) . وهو يومئذ (سيد الأحابيش) . وقد مرّ بـ (ابي سفيان) ، وهو يضرب في شدق (حمزة) بزج الرمح ، فلامه على فعله وأنبه .[2] ولعلّ هذا الحليس هو الحليس المتقدم ، كتب اسم والده بصور مختلفة بحذف اسم والده واضافة جده او غيره اليه ، فصار وكأنه انسان آخر .

وقد ورد ذكر (الحليس) في خبر (الحديبية) . فقد ذكر الطبري ان قريشاً اوفدت (الحليس بن علقمة) او (ابن زبان) ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو احد (بلحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، الى رسول الله ، فلما رآه الرسول ، قال : ان هذا من قوم يتألهون ، فلما رأى الحليس هدْيَ المسلمين في قلائده ، وأحس ان الرسول انما جاء معتمراً لا يريد سوءاً لقريش ، قصّ عليهم ما رأى ، فقالوا له : اجلس ، فإنما انت رجل أعرابي لا علم لك . فغضب (الحليس) عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، ان تصدّوا عن بيت الله من جاءه معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلُنّ بين محمد وبين ما جاء له او لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ! فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نوصي به .[3]

وقد ساهم (الأحابيش) في الدفاع عن مكة عام الفتح . وكانوا قد تجمعوا مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ومن كان من الأحابيش ، اسفل مكة . كما امرتهم قريش بذلك . فأمر رسول الله خالد بن الوليد ان يسير عليهم ، فقاتلهم حتى هزموا . ولم يكن بمكة قتال غير ذلك .[4] ولم يذكر (الطبري) اسم سيد الأحابيش في هذا اليوم .

ويتبين من دراسة اخبار اهل الأخبار عن الأحابيش ، ومن نقدها وغربلتها ، ان الأحابيش ، كانوا جماعة قائمة بذاتها ، مستقلة في ادارة شؤونها ، يدير امورها رؤساء منهم ، يعرف احدهم بـ (سيد الأحابيش) . وقد ذكرت اسماء

١ الطبري (٢/٥١٢) ، (غزوة أحد) .
٢ الطبري (٢/٥٢٧) ، (غزوة أحد) .
٣ الطبري (٢/٦٢٧ وما بعدها) ، (الحديبية) .
٤ الطبري (٣/٥٦) ، (فتح مكة) .

بعض منهم قبل قليل . وقد عاشوا عيشة اعرابية ، خارج مكة على ما يظهر من الروايات . وذلك بدليـــل قول قريش للحليس : (اجلس ، فإنما انت رجل اعرابي ، لا علم لك) . [1] اي انهم كانوا اعراباً ويعيشون عيشة اعرابية . ويظهر من هذه الاخبار ايضاً ان (الحليس) (سيد الأحابيش) ، كان من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وأن (ابن الدغنة) ، كان من (بني سليم) . ولم ينص اهل الاخبار فيما اذا كانا عربيين صريحين ام انهما كانا من (بني الحارث) ومن (بني سليم) بالولاء ، فنسبهما الى القبيلتين ، هو نسب ولاء .

ويظهر من خبر (الحديبية) ، ومن قول النبي لما رأى (الحليس) قادماً اليه : (ان هذا من قوم يتألهون) ، ان الأحابيش لم يكونوا على دين مكة اي من عباد الاصنام بل كانوا مؤلهة ، يدينون بوجود إلٰه . وقد يشير الرسول بذلك الى انهم كانوا نصارى ، اخذوا نصرانيتهم من الحبش . ولذلك كانوا من المؤلهة بالنسبة لقريش . وأنا لا استبعد ايضاً ان تكون تلك التسمية قد غلبت على هؤلاء لأنهم كانوا من الساحـــل الافريقي المقابل لجزيرة العرب . جاؤوا اليها بالفتوح وبالنخاسة ، وأقاموا في تهامة الى مكة ، وعاشوا عيشة اعرابية متبدية ، وتحالفوا مع القبائل العربية المذكورة ، وتخلقوا بأخلاق عربية حتى صاروا اعراباً في كل شيء . وقد لازمتهم التسمية التي تشير الى اصلهم ، وانمـــا تحالفوا مع (بني الحارث) وبقية المذكورين ، عرف حلفهم بـ (حلف الأحابيش) ، ثم عرف المتحالفون بـ (الأحابيش) . وقد نسي الأصل وهو الأحابيش ، اي اسم الحبش الذين تحالفوا مع (بني الحارث) و (عضل) و (الديش) و (المصطلق) و (الحيا) . لسبب لا نعرفه ، قد يكون بسبب كونهم عبيداً سوداً ، وأطلق الحلف على المذكورين . غير ان روايات اهل الاخبار تشير الى كثير من الأحابيش في مثل قولهـــا : (وخرجت قريش بأحابيشها) الى ان الأحابيش المذكورين كانوا في حكم قريش ، اي جماعة من الحبش من اهل افريقية ، كانت كما ذكرتُ تكوّن وحدة قائمة بذاتها ، ولكنها تدين بولائها لقريش ، ولها حلف مع بعض كنانة ومع قبائل اخرى . ولما كان عام الفتح امرتها قريش بالتعاون مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ، للدفاع عن مكة من جهة الجنوب . فامتثلت لأمر قريش ، وأخذت مواضعها هنالك ، حتى زلزلها (خالد بن الوليد) .

١ الطبرى (٦٢٧/٢) ، (الحديبية) .

وقد منح (لامانس) الأحابيش درجة مهمة في الدفـــاع عن قريش . حتى زعم ان قريشاً ركنت اليهم في دفاعهم عن مكة ، وعهدت اليهم دوراً خطيراً في حروبها مع الرسول . وقد استند في رأيه هذا الى ما رواه أهل الأخبار من اشتراكهم مع قريش في تلك الحروب . غير اننا نجد من دراسة أخبار الحروب المذكورة ، ان الأحابيش وان ساهموا فيها ، الا انهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فيها . وانهم لم يكونوا في تلك الحروب سوى فرقة من الفرق التي ساعدت قريشاً ، مقابل مال ورزق ووعود . ولم يكن الأحباش وحدهم قد ساعدوا أهل مكة في حروبهم مع غيرهم ، فقد ساعدهم ايضاً طوائف من الأعراب ، أي من البدو الفقراء الذين كانوا يقاتلون ويؤدون مختلف الخدمات في سبيل الحصول على خبز يعيشون عليه .

وقريش جماعة استقرت وتحضرت ، واشتغلت بالتجارة ، وحصلت منها على غنائم طيبة . ومن طبع التاجر الابتعاد عن الخصومات والمعارك والحروب . لأن التجارة لا يمكن ان تزدهر وتثمر إلا في محيط هادىء مستقر . لذلك ، صار من سياستها استرضاء الأعراب وعقد (حبال) مع ساداتهم ، لتأمين جانبهم ، ليسمحوا لقوافلها بالمرور بسلام . كما صار من اللازم عليها عقد أحلاف مـــع المجاورين لهم من الأعراب مثل (قريش الظواهر) و (الأحابيش) وأمثالهم للاستعانـــة بهم في الدفاع عن مكة والاشتراك معهم في حروبهم التي قد يجبرون على خوضها مع غيرهم . بالإضافة الى عبيدهم (الحبش) الذين اشتروهم لتمشية أمورهـــم وليكونوا حرساً وقوة أمن لهم .

ولم تكن قريش تعتمد على القوة في تمشية مصالحها التجارية ، بقدر اعتمادها على سياسة الحلم واللين والقول المعسول والكلام المرضي في الوصول الى غايتهـــا وأهدافها ومصالحها التجارية . وبهذه السياسة : سياسة اللين والمفاوضة والمسالمة ، كانت تبدأ بحل ما يقع لها من صعوبات مع الناس . ولم يكن من السهل عليها في الواقع إرضاء الأعراب واسكاتهم لولا هذه السياسة الحكيمة التي اختاروها لأنفسهم ، وهي سياسة أكثر سكان القرى العامرة الواقعة في البوادي بين أعراب جائعين ، سياسة الاسترضاء بالحكمة واللسان الجميل ، واداء المال رشوة لهـــم بأقل مقدار ممكن ، لأن الاكثار من السخاء يثير في الأعرابي شهوة طلب المزيد . وشهوتـه هذه متى ظهرت ؛ فسوف لا تنتهي عند حدّ . وأهل مكة بخبرتهم الطويلة في تجولهم بمختلف أنحاء جزيرة العرب أعرف من غيرهم بنفسية الأعراب .

وكان لأشرافها أحلاف مع سادات القبائل ، تحالفوا معهم لتمشية مصالحهم ولحماية تجارتهم . فكان (زرارة) التميمي مثلاً حليفاً لـ (بني عبد الدار) . وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف ، قد تزوّج (بنت النباش بن زرارة) ، وأولد منها (عكرمة بن عامر بن هاشم) الشاعر ، و (بغيض بن عامر) الذي كتب الصحيفة على (بني هاشم) في أمر مقاطعة قريش لبني هاشم[1] .

وقد عيرت قريش بأنها لا تحسن القتال ، وانها تجاري وتساير من غلب ، وانها لا تخرج إلا بخفارة خفير ، وبحلف حليف ، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائل . فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، بـ (سعد بن أبي وقاص) ، سأل عنه ، فقيل : (رجل من قريش ، فقال : اما إذا كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال . إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير)[2] . ونجد أمثلة أخرى من هذا القبيل تشير الى ميل قريش الى السلم ، وعدم قدرتها على القتال .

وذكر الأخباريون انه كان لكنانة جملة أولاد ، ذكر ابن الكلبي منهم : النضر ، والنضير ، ومالكاً وملكان ، وعامراً ، وعمراً ، والحارث ، وعروان (غزوان) ، وسعداً ، وعوفاً ، وغنماً ، ومخرمة ، وجرولاً . وهم من زوجته (برة بنت مرّ) أخت (تميم بن مرّ) . ولهذا رأى النسابون وجود صلة بين أبناء هؤلاء الأولاد وقبيلة (تميم) . وأما (عبد مناة) ، فإنه ابن كنانة من زوجته الأخرى ، وهي (الذفراء بنت هانيء بن بليّ) من قضاعة . ولذلك عدّ أبناؤه من قضاعة .

ويذكر أهل الأخبار ان من أجداد (قصيّ) ، رجل كانت له منزلة في قومه اسمه (كعب بن لؤي) ، كان يخطب للناس في الحج ، وكان رئيساً في (قريش) فلما توفي ، أرخت قريش بموته اعظاماً له ، الى ان كان عام الفيل فأرخوا به[3] . وذكر بعض أهل الأخبار ان أم (كعب) هي من (القين بن

١ نسب قريش (٢٥٤) .
٢ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٤١) .

جسر) من قضاعة ، وان كعباً هذا أول من سمى يوم الجمعة الجمعة ، وكانت العرب تسمي يوم الجمعة : العروبة . وأول من قال : (أمـا بعد) ، فكان يقول : (اما بعد ، فاستمعوا وافهموا) ، وان بين موته والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة [1] .

وفي قول أهل الأخبار عن وقت موت كعب مبالغة شديدة بالطبـع ، فإن كعباً هو والد (مُرّة) و (مُرّة) هو والد (كلاب) و (كلاب) هو والد (قصيّ) . فلا يعقل إذن ان يكون بين موت (كعب) وبين الفيل هذا المقدار من السنين .

وهم يذكرون ايضاً ان والد (قصيّ) وهو (كلاب) كان قـد تزوج (فاطمة بنت سعد بن سيل) ، فأنجبت له (قصيّاً) . وهي من الأزد ، من نسل (عامر الجادر) . وقد عرف بـ (الجادر) لانه بنى جدار الكعبة بعد ان وَهَنَ من سيل أتى في أيام ولاية جرهم البيت ، فسمي الجادر . وذكر ايضاً ان الحاج كانوا يتمسحون بالكعبة ، ويأخذون من طيبها وحجارتها تبركاً بذلك ، وان عامراً هذا كان موكلاً باصلاح ما شعث من جدرها فسُمّي الجادر . وذكر ان (سعد بن سيل) ، كان أول من حـلى السيوف بالفضة والذهب . وكان أهدى الى (كلاب) مع ابنته (فاطمة) سيفين محليين ، فجعلا في خزانـة الكعبة [2] . وذكر ان (كلاباً) ، هو أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة [3] . وجاء ايضاً انه أول من جدر الكعبة [4] .

و (قصيّ) رئيس قريش ، ، هو الذي ثبت الملك في عقبـه ، ونظـم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولم يكن لغـير قريش نفوذ يذكر على مكة . فهو الذي بعث الحياة الى قومه من قريش ، وجعل لهم مكانة في هذه القرية ونفوذاً وشهرة في الحجاز . وهو الذي أوجد لمكة مكانة ، وخلق

---

١ نهاية الأرب (١٨/١٦) .
٢ البلاذري ، أنساب (٤٨/١)، (كلاب) ، الدميري ، حياة الحيوان (٢٧٨/٢) .
٣ نهاية الأرب (١٩/١٦) .
٤ نسب قريش ، للزبيري (ص ١٤) .

لها نوعاً من التنظيم والإدارة . ومن عهده فما بعد نجد في أخبار مكة ما يمكن ان يركن ويطمأن اليه من أخبار .

وقد روى (ابن قتيبة) خبراً مفاده ان (قيصر) أعان (قصياً) على (خزاعة) [1] . واذا صح هذا الخبر ، فإن مساعدة (قيصر) له قد تكون عن طريق معاونة الغساسنة له ، وهم حلفاء الروم . وقد تكون قبيلة (بنو عذرة) وهي من القبائل المتنصرة التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشأم ، هي التي توسطت فيما بين قصي والروم ، وقد كانت خاضعة لنفوذهم ، فأعانه أحد الحكام الروم — وقد يكون من ضباط الحدود ، أو من حكام المقاطعات الجنوبية مثل (بصرى) — بأن أمده بمساعدة مالية أو بايعاز منه الى الأعراب المحالفين للروم بمساعدته في التغلب على خزاعة [2] . ولا أهمية كبيرة في هذا الخبر لكلمة (قيصر) . فقد جرت عادة أهل الأخبار على الإسراف في استعمالهم لهذه اللفظة . وقد ورثوا هذا الإسراف من الجاهليين ، فقد كان من عادتهم تسمية أي موظف بارز من موظفي الحدود الروم ، أو من حكام المقاطعات بـ (قيصر) . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ويذكر ان (عثمان بن الحويرث) ، وكان من الهجائين في قريش ومن العالمين بأخبار رجالها ، قد توسط فيما بعد لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة . وهو من (بني أسد بن عبد العزى) . ويظهر انه أدرك المرارة التي أصيب بها البيزنطيون من خروج الحبش عن اليمن ومن دخول الفرس اليها ، وسيطرتهم بذلك على باب المندب ، مفتاح البحر الأحمر ، فتقرب الى الروم وتوسل اليهم لمساعدته بكل ما عندهم من وسائل لتنصيب نفسه ملكاً على مكة ، علماً منه ان هذا الطلب سيجد قبولاً لديهم ، وان في امكانهم في حالة عدم رغبتهم بمساعدته مساعدة عسكرية أو مالية ، الضغط على سادات مكة ضغطاً اقتصادياً ، بعرقلة تجارتهم مع بلاد الشأم ، أو بمنع الاتجار مع مكة ، أو برفع مقدار الضرائب التي تؤخذ عن تجارتهم ، وبذلك يوافقون على الاعتراف به ملكاً

١ المعارف (ص ٦٤٠) ، (وأعانه قيصر عليها) ،
Lammens, Macque, P. 269.

٢ W. M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

عليـــه ، على نحو مـــا كان عليه الملوك الغساسنة . وكما سأتحدث عن هـــذا الموضوع فيما بعد .

والظاهر ان مشروعه هذا لم يلاق نجاحاً ، لأن سادات مكة وفي جملتهـــم رجال من (بني أسد بن عبد العزى) ، مثل (الأسود بن المطلب) و (أبو زمعة) ، والأثرياء من الأسرة الأخرى عارضوه ، لأنهم كانوا تجاراً يتاجرون مع الفرس والروم ، وانحيازهم الى الروم ، معناه خروج مكة عن سياسة الحياد التي اتبعوها تجاه المعسكرين : الفرس والروم ، وسيؤدي هذا الانحياز الى عرقلة اتجارهم مع الفرس ومع الأرضين الخاضعة لنفوذهـــم ، وتؤدي هـــذه العرقلة الى خسارة فادحة تقع بتجارتهم ، لا سيما وان الفرس كانوا قد استولوا على اليمن ، ولأهل مكة تجارة واسعة معها . ثم إن بين أهل مكة رجال لهم شأن ومكانة في قومهم ، وكانوا أرفع منزلة من (عثمان بن الحويرث) ، لذلك لم يكن من الممكن بالنسبة لهم الانصياع له حتى وإن أرسل الروم جيشاً قوياً منظماً على مكة ، لذلك لم يتحقق حلم (عثمان) في الرياسة ولو بمساعدة قوات أجنبية .

وزعم بعض أهـــل الأخبار ان (الحارث بن ظـــالم المري) ، ذكر (آل قصي) في شعره ، ودعاهم بـ (قرابين الإله) ، إذ قال :

وإن تَعصِب بهم نسبي فمنهـــم قرابـــين الإله بنو قصي[1]

وهو في عرف بعض النسابين : (قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن فِهر)[2] . و (قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مـــالك بن النضر بن كنانـــة بن خزيمـــة بن مدركة بن الياس بن مضَر بن نزار بن معـــد بن عدنان) ، في شجرة نسبه التي توصله الى جـــدّه الأعلى (عدنان)[3] . فأبوه هو كلاب . اما أمه ، فهي (فاطمة بنت سعد بن

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٦) .

٢ ابن الأثير ، الكامل ، (٢/٧ وما بعدها) ، المعارف (٧٠ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠) ، ابن سعد ، طبقات (١/٦٨) .

٣ الطبري (٢/٦٦١ وما بعدها) ، (دار المعارف بمصر) ، مروج (٢/١٦٤) ، (طبعه محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ، (١/١٨) ، أبو الفداء ، المختصر (١/١١٢) .

سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة ابن يشكر) من أزد شنوءة حلفاء في (بني الدّيل) [1] . توفي أبوه وهو صغير ، وتزوجت أمه بعد وفاة (كلاب) أبيه من رجل من بني عذرة ، هو ربيعة بن حرام . ولصغر سن قصي ، أخذته أمه معها الى أرض زوجها في بني عذرة ، على مقربة من تَبُوك ، وتركت أخاه الأكبر (زهرة) في أهله بمكة . ولما شب قصيّ وترعرع ، وعرف من أمه أصله وعشيرته ، رجع الى قومه ، فنزل بمكة وأقام بها : ونظم أمر قريش [2] .

ولم يكن اسم قصي قصيّاً يوم سُمي ، بل كان (زيداً) ، وانما سُمّي قصيّاً بعد ذلك ، سُمّي قصيّاً على ما يذكر أهل الأخبار ، لأنه قصيّ عن قومه ، فكان في بني عذرة ، فسمي قصيّاً لبعد داره عن دار قومه [3] . وبينا قصي بأرض قضاعة لا ينتمي إلا الى ربيعة بن حرام ، زوج أمه ، وهو من أشراف قومه ، إذ كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء ، فأنبه القضاعي بالغربة ، فرجع قصي الى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي ، فسألها عما قال له ذلك الرجل ، فقالت له : أنت ، والله ، يا بني أكرم منه نفساً وولداً . فأجمع قصي الخروج الى قومه واللحوق بهم ، فقالت له أمه : يا بني ، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإني أخشى عليك ان يصيبك بعض البأس ، فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام ، خرج حاج قضاعة ، فخرج فيهم حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج ، أقام بها ، واتخذها له مستقراً ومقاماً [4] .

وتعرف قصي وهو بمكة على (حليل بن حبشية الخراعي) ، وكان يلي الكعبة وأمر مكة ، ثم خطب اليه ابنته ، وهي (حبى) ، فزوجه إياها ، وولدت

---

١ الطبري (٢/٢٥٤) ، (دار المعارف بمصر) ، (وسيل ، هو خير بن حمالة ، من الجدرة من أزد شنوءة) ، المحبر (٥٢) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٦٦ وما بعدها) .

٣ واسمه (زيد) وكنيته (أبو المغيرة) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٧ وما بعدها) ، (فاطمة بنت سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر) ، الاشتقاق (١٣ ، ٢٥) ، الطبري (٢/٢٥٥) ، (دار المعارف بمصر) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٥٧) ، السويدي ، سبائك (٦٧) .

٤ الطبري (٢/٢٥٥) (دار المعارف بمصر) ، نهاية الأرب (١٦/٢٠ وما بعدها) .

له ولده : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبد قصي . وكثر ماله ، وعظم شرفه ، فلما توفي (حليل) رأى قصي انه أولى من خزاعة بولاية البيت ، وان قريشاً فرعة اسماعيل وابراهيم ، واستنفر رجال قريش ، ودعاهم الى اخراج خزاعة من مكة . وكتب الى أخيه من أمه ، وهو (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يستنصره ، فأجابه ومعه قومه من بني عذرة من قضاعة ، ووصلوا مكة ونصروه ؛ وغلبت قضاعة وبنو النضر خزاعة ، وزال ملكهم عن مكة ، وصار الامر الى قصي وقريش[1] .

وفي رواية أخرى انه اشترى ولاية البيت من (أبي غَبْشان) بزق خمر وبعود . وكان (حليل) كما يقول أصحاب هذه الرواية قد جعل ولاية البيت الى ابنته (حُبى) ، فقالت : قد علمت اني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه ، قال : فاني أجعل الفتح والاغلاق الى رجل يقوم لك به ، فجعله الى (أبي غَبْشان) ، وهو (سليم بن عمرو بن بويّ بن ملكان بن أفصى) ، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود . فلما سمعت خزاعة ذلك ، تجمعت على قصي ، فاستنصر أخاه ، فقاتل خزاعة وأصيب خزاعة بوباء العدسة ، حتى كادت تفنيهم . فلما رأت ذلك ، جلت عن مكة . ويذكرون ان العرب لما سمعت بقصة (أبي غبشان) ، قالت : (أخسر صفقة من أبي غبشان) ، فذهب القول مثلاً[2] .

وأبو غبشان ، هو (المحترش)[3] . وقد ورد اسم رجل عرف بالحارث ، قيل عنه انه غبشان بن عبد عمرو ، وانه كان قد حجب البيت[4] ، فلعلّ له علاقة بأبي غبشان المذكور ، كأن يكون ابنه .

وفي رواية ان القتال حينما اشتد بين قصي وخزاعة ، تداعوا الى الصلح ، على

١ الطبري (٢/٢٥٥ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢/٧ وما بعدها) ، الأزرقي (١/٥٥ وما بعدها) ، (طبعة الماجدية) ، (٦٥ وما بعدها) ، (طبعة وستنفلد) ، ابن سعد، الطبقات (١/٦٨) (صادر) ، البلاذري ، أنساب (١/٤٧ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٢٥٦) (دار المعارف بمصر) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٨) ، السويدي، سبائك (٦٧) ، المسعودي ، مروج (٢/٥٨ وما بعدها) .

٣ الاشنفاق (ص ٢٧٧) .

٤ الاشنفاق (ص ٢٨٢) .

ان يحكم بينهم (عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة) (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث) ، فوافق . فكان حكمه ان قصياً أولى بالبيت ومكة من خزاعة ، وان كل دم أصابه من خزاعة موضوع ، فيشدخه تحت قدميه ، وان كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر حلفاؤهم من قريش وبني كنانة ، ففي ذلك الدية مؤداة . وبذلك انتصر قصي على خصومه . ويقولون إن (عمراً) سُمّي منذ ذلك الحين الشدّاخ ، بما شدخ من الدماء [1] .

ولم يشر بعض أهل الأخبار الى ان شدخ الشدّاخ الدماء بين قريش وخزاعة ، كان في عهد قصي ، فأغفلوا اسم (قصي) ، بل اكتفوا بالاشارة الى شدخه الدماء واصلاح ما بين قريش وخزاعة ، وذكر بعضهم انه حكم في جملة ما حكم به على ألا يخرج خزاعة من مكة [2] . وأكثر الرواة على ان اسمه (يعمر بن عوف ، لا (عمرو بن عوف) كما جاء في الرواية المتقدمة [3] .

ولم تشر رواية أخرى ذكرها (ابن دريد) الى وقوع نزاع بين قصي وبين خزاعة ، بل قالت : إن حليلاً سادن الكعبة ، كان قد أوصى اليها أمر الكعبة واعطاها مفتاحها ، فأعطته زوجها قصياً ، فتحولت الحجابة من خزاعة الى بني قصي [4] .

وترجع بعض الروايات نزاع خزاعة مع قصي الى عامل آخر غير ولاية البيت ، فتذكر ان خزاعة كانت قد سلمت لقصي بحقه في ولاية البيت ، وانها زعمت ان (حليلاً) أوصى بذلك قصياً ، وبقيت على ولائها له ، الى ان اختلف (قصي) مع (صوفة) . وكانت (صوفة) وهي من (جرهم) تتولى أمر الإجازة

---

١ ابن الأثير (٨/٢) ، (الشداخ : وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر) المحبر (ص ١٣٣) ، (يعمر بن عوف) ، ابن سعد ، الطبقات (٦٩/١) (صادر) ، نهاية الأرب (٣٨/١٦) .

٢ المحبر (ص ١٣٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٠٦) ، سيرة ابن هشام (٧٩/١ وما بعدها)، الطبري (١٠٩٧) (طبعة ليدن) ، (٢٥٨/٢) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٧٦) .

بالناس من عَرَفَة . فتجيزهم إذا نفروا من (منى) تولت ذلك من عهد جرهم وخزاعة . فلما كان قصي ، أتاهم مع قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقالوا : نحن أولى بهذا منكم ، فناكروه ، فناكرهم ، فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً ، ثم انهزمت صوفة ، وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك ، وحال بينهم وبينه ، فانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي بن كلاب ، وعرفوا انه سيمنعهم كما منع صوفة ، فوقع من ثم ما وقع على نحو ما مرّ[1] .

غير ان الرواة يذكرون في مكان آخر ان قصياً أقر للعرب في شأن حجّهم ما كانوا عليه ، وذلك انه كان يراه ديناً في نفسه ، لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه ، حتى انقرضت — فصار ذلك من أمرهم الى (آل صفوان بن الحارث بن شجنة) وراثة[2] . فهذه الرواية تنافي ما ذكرته آنفاً من قولهم بقتال قصي لهم ، وغلبته عليهم . وبقي أمر (عدوان) والنسأة ، ومرة ابن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم به ذلك كله[3] .

ويذكر الأخباريون ان قصياً بعد ان تمت له الغلبه ، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال الى مكة ، فسُمّي لذلك مُجمّعاً ، وانه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم . فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه ، فبنوا المساكن ، وان قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه ، وانها تيمنت به ، فكانت لا تعقد أمراً ، ولا تفعل فعلاً إلا في داره ، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي ، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره ، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره ، يعقدها لهم بعض ولده ، وما تدّرع جارية إذا بلغت ان تدّرع من قريش إلا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، لا يعمل بغيره تيمناً بأمره ومعرفة

---

١ الطبري (٢/٢٥٧ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٦٨) .
٢ الطبري (٢/٢٥٩) .
٣ نهاية الأرب (١٦/٢٩) .

بفضله وشرفه ، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها [1] .

ويذكر الأخباريون ايضاً ، ان قريشاً كانوا إذا أرادوا إرسال عيرهم ، فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة . ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة . وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة . وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها [2] .

وقد وردت في الشعر لفظة (مجمع) :

أبونا قصي كان يدعي مجمّعاً بـه جمع الله القبائل من فهر [3]

فيظهر من هذا البيت انه جمع قبائل فهر ، ووحدها .

ويذكر الرواة ان (بني بكر بن عبد مناة) ، صاروا يبغضون قريشاً لما كان من (قصي) حين أخرجهم من مكة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها رباعاً وخططاً بين قريش . فلما كانوا على عهد (المطلب) ، وهموا باخراج قريش من الحرم وان يقاتلوهم حتى يغلبوهم عليه ، وعدت (بنو بكر) على نعم لبني الهون فأطردوها ، ثم جمعوا جموعهم وجمعت قريش واستعدت . وعقد المطلب الحلف بين قريش والأحابيش ، فلقوا بني بكر ومن انضم اليهم وعلى الناس (المطلب) ، فاقتتلوا بـ (ذات نكيف) ، فانهزم بنو بكر ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، فلم يعودوا لحرب قريش .

وقتل يومئذ (عبيد بن السفّاح القاري) من القارة : قتادةَ بن قيس أخا

١ الطبري (٢/٢٥٨ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/١٣ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٢٤ وما بعدها) ، (طبعة مصطفى البابي) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٢) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) .

٣ الاشتقاق (٩٧) ، وفي رواية : (أبوكم فصي) ، الطبري (٢/١٦) (الاستفامة) ، اليعقوبي (١/٢١٠) ، المقدسي ، البدء والتأريخ (٤/١٠٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧١) (بيروت) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٠) .

(بلعاء بن قيس) . والقارة من ولد (الهون بن خزيمة) [1] .

ويظهر من هـذه الروايات ان أرض حرم مكة كانت مشجرة ، وان تلك الأشجـار كانت مقدسة ، وان بعض بيوت مكة كانت ذات أشجار ، ويظهر انها انتزعت من أرض الحرم ، ولذلك كانوا يهابون قطعها ولا يتجاسرون على إلحاق سوء بها . فلما جاء قصي ، خالف عقيدة القوم فيها ، فقطعها . ولما وجد أهل مكة ان قطعها لم يلحق أي سوء بقصي ، وانه بقي سالماً معافى ، تجاسروا هم وفعلوا فعله في قطع الشجر [2] .

وذكر العلـماء : ان (الحرم) ، أي حرم مكة ، مـا أطاف بمكة من جوانبها ، وحدُّه من طريق المدينة دون (التنعيم) عند بيوت (بني نفار) على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنيّة جبل بالمنقطع على سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة بشِعْب (آل عبد الله بن خالد) على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة من بطن (نمرة) على سبعة أميال ، ومن طريق (جُدَّة) منقطع العشائر على عشرة أميال [3] .

والحرم المذكور ، هو الأرض الحرام التي كانت مقدسة عند الجاهليين أيضاً ، وهي مكة وأطرافها الى حدودها التي اصطلح عليها . وأما الحرم الذي أحـاط بالكعبة فقد عرف بـ (المسجد) و (بالمسجد الحرام) و بـ (الحرم) . ولا نعرف حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم . وقـد كان الجاهليون قـد وضعوا أنصاباً على الحدود ليعلم الناس مكان الحرم ، ولم يكن له جدار يحيـط به . وذكر انه كان في عهد الرسول وأبي بكر فناء حول الكعبة للطائفين ، ولم يكن له على عهدهما جدار يحيط به . فلما استخلف (عمر) وكثر الناس ، وسّع المسجد ، واشترى دوراً هدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، وكانت المصابيح توضع عليه . فكان عمر أول من اتخذ جداراً للمسجد .

١ البلاذري ، أنساب (١/٧٥ وما بعدها) ، المحبر (٦٤٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٥ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧١) ، (صادر) ، السيرة الحلبية (١/١٤) ، اليعقوبي (١/٢١٠) .

٣ الأحكام السلطانية (١٦٤ وما بعدها) .

ثم وسّع المسجد (عثمان) ومن جاء بعده ، ثم صار كل من ولي من الخلفاء والسلاطين يزيد في اتساع الحي ، حتى صار على ما هو عليه الآن . [1]

ودار الندوة اذن هي دار مشورة في أمور السلم والحرب ، ومجلس المدينة التي عرف رؤساؤهـــا كيف يحصلون على الثروة وكيف يستعيضون عن فقر ارضهم بتجارة تدرّ عليهم ارباحاً عظيمة وبخدمة يقدمونها الى عابدي الأصنام ، جاءت اليهم بأموال وافرة من الحجيج . في هذه الدار يجتمع الرؤساء وأعيان البلاد للتشاور في الأمور والبت فيها . وفي هذه الدار ايضاً تجري عقود الزواج ، وتعقد المعاملات ، فهي دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها (الملأ) ، وهم مثـــل اعضاء مجلس شيوخ (اثينا) الذين كانوا يجتمعون في (المجلس) (Ekklesia) للنظر في الأمور . [2] يمثلون زعماء الأسر ، ورؤساء الأحياء ، وأصحاب الرأي والمشورة للبت فيما يعرض عليهم من مشكلات . [3]

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان دار الندوة لم يكن يدخلها الاّ ابن اربعين او ما زاد ، فدخلها ابو جهل ، وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه . [4] ودخلها غيره للسبب نفسه . فيظهر من ذلك ان المراد من دخول الدار ، هو حضورها للإسهام في ابداء رأي وتقديم مشورة .

ولما كانت سن الأربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال ، اخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الأصغر لسن من يسمح له بالاشتراك في الاجتماعات وابداء الرأي ، الا اذا وجدوا في رجل اصغر سناً جودةً في الرأي ، وحدة في الذكاء ، فيسمح له عندئذ بالاشتراك وبابداء الرأي بصورة خاصة .

وذكر ايضاً ، انه لم يكن يدخل دار الندوة احد من قريش لمشورة حتى يبلغ اربعين سنة ، الاّ حكيم بن حزام ، فانه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة . وكان ولد في الكعبـــة ، وذلك ان أمه دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل به ، فضربها المخاض في الكعبة ، وأعجلها عن الخروج ، فوضعت به بها . وجاء

١ الأحكام السلطانية (١٦٢) ، نزهة الجليس (٢٤/١) .
٢ Watt, p. 9.
٣ O'Leary, p. 183.
٤ الاشتقاق (ص ٩٧) .

الإسلام ودار الندوة بيد حكيم ، فباعها بعد من معاوية بمائة الف درهم . [1]

فدار الندوة اذن ، هي دار (ملأ) مكة . وهم سادتها ووجوهها وأشرافها وأولو الأمر فيها . ولم تكن (برلماناً) او (مجلس شيوخ) على النحو المفهوم من اللفظتين في المصطلح السياسي . وانما كانت دار (أولي الشورة) و (الرأي) . تتخذ رأياً عند ظهور حاجة او اخذ (الرأي) وعند وجوب حصول زعماء الملأ على قرار في امر هام . ولم تكن قراراتها ملزمة ، بل قد يخالفها سيد ذو رأي ومكانة ، فينفرد برأيه . ولا يحصل الاجماع الا باتفاق . والغالب ألا يحصل هذا الاتفاق . ويتوقف تنفيذ رأي (الملأ) على شخصية المقررين وعلى كفاءتهم وعلى ما يتخذونه من اجراء بحق المخالفين المعاندين من مقاطعة ومن مساومة ومن اقناع . والغالب ان الملأ لا يتخذون رأياً الا بعد دراسة وتفكير ، ومفاوضات يراعى فيها جانب المروءة والحلم والمرونة ، حتى لا يقع في البلد انشقاق قد يعرض الأمن الى الاهتزاز .

وربما قام وجوه (الشعب) ، وهم سادة الأسر ، بدور هو اكثر فعّالية من دور (دار الندوة) في فضّ الخصومات . والعادة عندهم ان الخصومات الداخلية للأسر ، تفض داخل الأسرة ، لأن (آل) الأسرة أقدر على حل خلافاتهم من تدخل غيرهم في شؤونهم ، ثم انهم لا يقبلون بتدخل غريب عن الأسرة في شأن من شؤون تلك الأسرة . لذلك كان (الملأ) لا ينظرون الا في الامور التي هي فوق مستوى الاسر و (الشعاب) ، والتي تخص امور المدينة كلها ، والتي قد تعرض أمنها الى الخطر ، او التي يتوقف على قراراتهم بصددها مستقبل المدينة .

والانسان بمكة بأسرته وبمقدرته وقابلياته وكفاءته . وقد يرفع الاشخاص من مستوى اسرهم ، وقد يهبط مستوى الأسر ومكانتها بسبب هبوط مستوى رجالها وعدم ظهور رجال اغنياء اقوياء فيها . ولما كانت مكة مدينة عمل وتجارة ومال ، والمال يتنقل بين الناس حسب اجتهاد الافراد وجدهم في السعي وراءه ، لذلك تجد من بين رجالها من يخمل ذكره بسبب خمول اولاده وتبذيرهم لما ورثوه من مال ، وعدم سعيهم لاضافة مال جديد اليه . ويستتبع ذلك تنقل النفوذ من بيت الى بيت .

فالحكم في مكة اذن حكم لا مركزي ، حكم رؤساء واصحاب جاه ونفوذ ومنزلة

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٥١٨ وما بعدها) .

تطاع فيها الاحكام ، وتنفذ الاوامر ، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على اهل مكة ، بل لأن الاحكام والاوامر هي احكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف ، واحكام هؤلاء مطاعة في عرف اهل مكة وفي عرف غيرهم من اهل جزيرة العرب . حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف ، ولا مخالفة للعرف والعادة . فالعرف قانون اهل جزيرة العرب حتى اليوم . وانتهاك احكامها معناه انتهاك سيادة القانون ، وتمرد على الهيأة والنظام ، وتحقير الحاكمين واهانة لهم ولاتبـــاعهم ، وليس لاحد الخروج على اوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل .

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة ، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش ، ولا رئيس واحد يحكمها على انه رئيس جمهورية او رئيس مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً او حكماً بالتناوب ، ولا حاكم مدني عام او حاكم عسكري . ولم يتحدث اهل الاخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الامن . او مدير له سجن يزج فيه الخارجين عن الانظمة والقوانين او ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات . وكل امرها انها قرية تتألف من شعاب . كل شِعْب لعشيرة . وأمر كل شِعْب لرؤسائه ، هم وحدهم اصحاب الحلّ والعقد والنهي والتأديب فيه . وليس في استطاعة متمرد مخالفـــة احكامهم . والاّ ادبه حيّه ، وملؤه اي اشرافه . هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب .

وقد اشير الى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية : (وقالوا : لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . [1] فرؤساء مكة هم علماؤها وساداتها ، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها . و (عظماء) مكة او (عظماء الطائف) هم الطبقة (المختارة) والصفوة المتزعمة في الناس . واليها وحدها تكون الزعامة والرئاسة والرجاحة في الرأي .

وقانون القوم ودستورهم : (إنا وجدنا آباءنـــا على امة وانّا على آثارهم مقتدون) . [2] فهم محافظون حريصون على كل ما وصل اليهم ، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً . مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق . (قال : أوَ لو

١ الزخرف ، الآية ٣١ .
٢ الزخرف ، الآية ٢٣ .

جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم . قالوا انّا بما أُرسلتم به كافرون) . [1] وفي القرآن الكريم آيات اخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملأ بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكّنهم من الملأ ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى مصالحهم وعلى زعامتهم في الناس .

فملأ مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنتهم التعلق بالماضي ، وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . اما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والاجداد ، فيعاقب حتى يعود الى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، انما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد ، المحافظة على مصالحها ، استناداً الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجّل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد . (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا : بل نتبع ما ألفينـــا عليه آباءنا . او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . [2]

وقد توارث بنو عبد الدار الندوة ، حتى باعها (عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبـــد مناف بن عبد الدار) من معاوية ، فجعلها دار الامارة بمكة ، ثم أدخلت في الحرم [3] . وورد في رواية اخرى ان (حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسلمي) وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد ، كان هو الذي باعها من معاوية وكانت بيده . باعها بمئة ألف درهم . [4] وكان قد اشتراها من (منصور بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . [5]

ودار الندوة ، هي أول دار بنيت بمكة على حدّ قول الرواة . وكانت اشهر

١ الزخرف ، الآية ٢٤ .
٢ البقرة ، الآية ١٧٠ .
٣ ابن الاثير ، الكامل (١٤/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٦٢/١٠ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) ، (وعكرمه بن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصي) ، الأحكام السلطانية (ص ١٦٤) ، البلاذرى ، أنساب (٥٣/١) .
٤ ديوان حسان (٦٩) ، (البرقوقي) .
٥ نسب قريش (٢٥٤) .

دار بمكة وانشرها في الناس خبراً.[1] ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه. ويذكر اهل الاخبار: ان مكة لم تكن ذات منازل، وكانت قريش بعد جُرْهُم والعمالقة ينلجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً الى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصصاً بالحرم لحلولهم فيه. ولما كان (كعب بن لؤيّ بن غالب)، جمع قريشاً صار يخطب فيها في كل (جمعة)، وكان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية (عروبة) فسماه كعب (الجمعة). وبذلك ألف بين قريش حتى جاء (قصي) ففعل ما فعل.[2]

ولدينـــا خبر آخر، يذكر انه قد كان حول الحرم شجر ذو شوك، نبت من قديم الزمن وكوّن غُوطة، فقطعها (عبد مناف بن قصي)، وهو أول من بنى داراً بمكة، ولم تُبن دار قبلها، بل كان بهـــا مضارب للعرب من الشعر الاسود.[3]

وزعم بعض اهـــل الاخبار ان اهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مُدوّرة تعظيماً للكعبة، وأول من بنى بيتاً مربعاً (حُمَيْد بن زهير)، فقالت قريش: (رَبّعَ حُمَيْد بن زهير بيتاً)، امّا حياةً واما موتاً).[4] و (الربع): المنزل ودار الإقامة والمحلة.[5] وهو احد (بني أسد بن عبد العزى). وان العرب تسمي كل بيت مربع كعبة، ومنه كعبة نجران.[6] وذُكر ايضاً ان (حُمَيْد بن زبير ابن الحارث بن اسد بن عبد العزى)، هو اول من خالف سنة قريش وخرج على عرف اهل مكة فبنى بيتاً مربعاً. وجعل له سقفـاً. وفي عمله هذا قال الراجز:

اليوم يبني لِحُمَيْدٍ بيته امّا حياته واما موته[7]

وورد في رواية اخرى، ان ثاني دار بنيت بمكة بعد دار الندوة، هي (دار

١ الأحكام السلطانية (ص ١٦٣ وما بعدها)، البلاذري، فتوح (٦٤).
٢ الأحكام السلطانية (ص ١٦٢ وما بعدها).
٣ نزهة الجليس (١/٢٤).
٤ نهاية الأرب (١/٣١٣).
٥ اللسان (٨/١٠٢).
٦ ابن رسته، الاعلاق النفيسة (٥٨).
٧ الثعالبي، ثمار القلوب (١٣)، مؤرج السدوسي، حذف من نسب قريش (٥٤)، الزبير بن بكار، نسب قريش (١/٤٤٣)، Kister, p. 126

العجلة) ، وهي دار سعيد بن سعد بن سهم . وزعم (بنو سهم) انها بنيت قبل (دار الندوة) [1] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن بيوت مكة ان بيوتهـا ، وهي بيوت أثريائها وساداتها ، بيوت كانت مقامة بالحجر ، وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان باب يدخل منها الداخل وباب تقابلها يخرج منها الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع ليتمكن النساء من الخروج من الباب الأخرى عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابلة . ومعنى هذا ان أمثال هذه الدور كانت واسعة تشرت على زقاقين . ولبعض الدور (حجر) عند باب البيت ، يجلس تحتـه ليستظل بـه من أشعة الشمس ، وكان منزل (خديجـة) ذو حجـر من هذا الطراز [2] .

ولو أخذنا بالرواية المتقدمة عن التغيير الذي طرأ على طراز العمارة في مكة ، فإن ذلك يحملنا على القول : إنه يجب ان يكون قد حدث في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد . في وقت ليس ببعيد عهد عن أيام النبي . لأننا نجد ان أحد أبناء (حُمَيْد) ، وهو عبد الله) ، كان قد حارب في معركة (أحد) [3] .

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين المتقدمة عن مدى سعة الحرم وعن زمان بناء الدور بمكة ، ان بطن مكة لم يعمر ولم تبن البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام (قصي) . أما ما قبل ذلك ، فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، أي أطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة . أما باطن مكة ، وهو الوادي الذي فيه البيت ، فقد كان حرماً آمناً ، لا بيوت فيه ، او ان بيوته كانت قليلة حصرت بسدنـة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته . لذلك نبت فيه الشجر حتى غطي سطح الوادي ، من السيول التي كانت تسيل اليه من الجبال . ولم يكن في وسع أحد التطاول على ذلك الشجر ، لأنه شجر حرم آمن ، وبقي هذا شأنه يغطي الوادي ويكسو وجهه بغُوطة ، حتى جاء (قصي) ، فتجاسر عليه بقطعه كما ذكرنا . وخاف الناس من فعله ، خشية

١ البلاذري ، فتوح (٦٤) .
٢ الطبري (٢/٢٨٢) ، (ذكر تزويج النبي) .
٣ Kister, P., 127

غضب رب البيت ، ونزول الأذى بهم إن قطعوه . فلما وجدوا ان الله لم يغضب عليهم ، وانه لم ينزل سوءاً بهم ، اقتفوا أثره ، فقطعوا الشجر ، واستحوذوا على الأرض الحرام ، وظهرت البيوت فيه ، وأخذت تتجه نحو البيت حتى أحاطت به ، وصغرت مسجده ، ولم يكن له يومئذ جدار . وظلت البيوت تتقرب اليه حتى ضايقته وصغرت فناءه : مما اضطر الخليفة (عمر) ومن جاء بعده الى هدم البيوت التي لاصقته لتوسيع مسجده ، ثم الى بناء جدار ليحيط به حتى صار على نحو ما هو عليه في هذا اليوم .

ويتبين من خطبة الرسول عام الفتح ويوم دخوله البيت الحرام وقوله : (لا يُختلى خلا مكة ولا يعضد شجرها) [1] ، ان حرم مكة كان لا يزال ذا شجر . ولم يكن قد قطع تماماً منه في أيام الرسول .

وتذكر بعض الموارد ان قصيّاً أول من بنى الكعبة بعد بناء تبع ، وكان سمكها قصيراً ، فنقضه ورفعها [2] . وإذا صحت الرواية ، يكون قصي من بناة الكعبة ومن مجدديها . وذكر انه كان أول من جدد بناء الكعبة من قريش ، وانه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل . وقد أشير الى هذا البناء في شعر ينسب الى الأعشى [3] . وهذه الرواية تناقض بالطبع ما يرويه الأخباريون من ان الكعبة لم تكن مسقفة ، وانها سقفت لأول مرة عندما جدد بناؤها في أيام شباب الرسول . وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة [4] .

والظاهر من روايات الأخباريين ، ان البيت كان في الأصل بيتاً مسقوفاً ، غير انه أصيب بكوارث عديدة ، فتساقط وتساقط سقفه مراراً بسبب السيول ، وبسبب حريق أصيب به ، فصار من غير سقف في أيام شباب الرسول . حتى اذا ما نقضت قريش البيت وأعادت بناءه سقفته ، وزوّقت جدره الداخلية والخارجية بالأصنام والصور . وأعادت اليه خزائنه حتى كان يوم الفتح ، إذْ أمر الرسول

---

١ فتوح البلدان ، للبلاذري (ص ٥٥) .

٢ الاشتقاق (٩٧) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٠٧/٢) .

٣ بلوغ الأرب (٢٣٢/١) ،

حلفت بثوبي راهب الشأم والتي ... بناها قصي جدّه وابن جرهم
لئن شبّ نيران العداوة بيننا ... ليرتحلن منى على ظهر شيهم

الأحكام السلطانية (١٦٠) .

٤ الأحكام السلطانية (١٦٠) ، الطبري (٢٨٣/٢) ، (دار المعارف) .

بتحطيم الأصنام وبطمس الصور على نحو ما سأتحدث عنه في تأريخ الكعبة وذلك في القسم الخاص بأديان الجاهليين .

وفي روايات أهل الأخبار عن البيت ــ كما سنرى فيما بعد حين أتكلم عنه في هذا القسم الخاص بأديان أهل الجاهلية ــ غموض وتناقض ، يجعل من الصعب تكوين رأي واضح عنه . فبينما هم يقولون إنه كان من غير سقف وان الطيور كانت تقف عليه ، وان الأتربة المحملة بالأهوية كانت تتساقط في أرض البيت ، نراهم يذكرون انه كان مسقفاً ، وانه سقف بالخشب في أيام قصي وانه احترق ، ثم يقولون إنه كان في داخله أصنام قريش ، مع ان الوصف الذي يقدمونه لنا عن الكعبة من انها (كانت ضمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنزَ الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة)[1] ، لا يمكن ان يجعل البيت سوى غرفة بسيطة ساذجة من أحجار رصت بعضها فوق بعض .

وفي روايــة : ان قصيّاً هو أول من أظهر (الحجر الأسود) ، وكانت (إياد) دفنته في جبال مكة ، فرأتهم امرأة حين دفنوه ، فلم يزل (قصي) يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه ، فأخرجه من الجبل ، واستمر عنــد جماعة من قريش يتوارثون حتى بنت قريش الكعبة فوضعوه بركن البيت ، بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي[2] .

ويذكر ان قصيّاً بعد ان تمكن من مكة ، حفر بها بئراً سماها (العجول) وهي أول بئر حفرتها قريش[3] . وكانت قريش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة تدعى (اليسيرة) ومن حياض ومصانع على رؤوس الجبال . ومن بئر حفرها (مُرّة بن كعب) مما يلي عَرَفَة ، تدعى (الروى) ، ومن آبار حفرها (كلاب بن مرة) ، هي (خم) و (رم) و (الجفر)

١ الطبري (٢/٢٨٣) .
٢ نزهة الجليس (١/٢٦) ، البلاذري ، أنساب (١/٥١) ، نهاية الأرب (١٦/٣١) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) ، البلاذري ، أنساب (١/٥١) .

بظاهر مكة[1] . فكانت (بئر العجول) أول بئر حفرتها قريش في مكة[2] .

وازدادت حاجة أهل مكة ، بعد قصي وقد تزايد عددهم الى الماء ، ولم تعد (العجول) تكفي لتموينهم به ، فاقتفى أولاده أثره في حفر الآبار ، واعتبروا حفرها منقبة ومحمدة ، لما للماء من أهمية لأهل هذا الوادي الجاف . وقد حازت بئر زمزم على المقام الأول بين آبار مكة ، فهي بئر البيت وبئر الحجاج تموّنهم مما يحتاجون اليه من ماء .[3]

وذكر أهل الأخبار ان في جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية ، انه أحدث وقود النار بالمزدلفة : حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، فلم تزل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية[4] . ويظهر ان قريشاً حافظت على هذه السُنّة أمداً في الإسلام . وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان[5] .

ويذكرون أيضاً ان في جملة ما أحدثه : (الرفادة) ، وهي إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا الى بلادهم . وقد فرضها على قريش إذْ قال لهم : (يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوّار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم) . ففعلت قريش ذلك ، فكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه الى قصي ، لكي يصنعه طعاماً للناس أيام منى وبمكة وقد بقيت هذه السنة في الإسلام[6] . وذكر ان (الرفادة شيء كانت

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠) ، (المكتبة التجارية) .

٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) ، وفيها قال بعض رُجّاز الحجاج :

تروى على العجول ثم تنطلق ان قصيّاً قد وفى وقد صدق
بالشبع للناس وريّ مغنبق

البلاذري ، أنساب (١/٥١) ، (دار المعارف) .

٣ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠ وما بعدها) .

٤ الطبري (٢/٢٦٥) ، ابن الأثير ، البداية (٢/٢٠٧) ، السويدي ، سبائك الذهب (١١٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٢) (بيروت) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٧٢) (صادر) .

٦ ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٩٣) (بيروت) ، الطبري (٢/١٩) (الاستقامة) (٢/٢٦٠) (دار المعارف) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٣) .

تترافد به قريش في الجاهلية ، فيستخرج فيما بينها كل انسان مالاً بقدر طاقته وتشتري به للحاج طعاماً وزبيباً للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج[1] .

وكانت الى قصي أيضاً : الحجابة ، والسقاية واللواء . فحاز شرف قريش كله[2] . وصار رئيسها الوحيد المطاع ، الناطق باسمها الآمر والناهي ، إذ لا أحد أحكم وأعقل وأحسن إدارةً للملك منه .

وذكر ان قصياً أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل ، وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وملك الفرس الساسانيين (بهرام جور)[3] . وقد كان حكم (بهرام جور) من سنة (٤٢٠ م) حتى سنة (٤٣٨ م)[4] ، أي في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد ، واذا أخذنا برواية من جعل قصياً من المعاصرين لهذا الملك ، يكون حكم قصي إذن في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد .

وقد نسب أهل الأخبار الى قصي أقوالاً وأمثالاً وحكماً وجعلوه غاية في الحكمة والمنطق . وروي (ان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه)[5] .

وقد ترك قصي أثراً كبيراً في أهل مكة ، وعدّوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش . وكانوا يذكرون اسمه دائماً بخير . وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه . فلما تطاول الشاعر (عبد الله بن الزِّبَعْرَى) ، على ما جاء في بعض الروايات ، وتجاوز حدّه بذكر قصي بسوء في شعر له ، كتبه كما يقولون في أستار الكعبة ، غضب بنو عبد مناف ، واستعدّوا عليه (بني سهم) ، لأنه كان من (بني سهم) ، فأسلموه اليهم ، فضربوه وحلقوا شعره وربطوه الى

١ تاج العروس (٢/٣٥٥) ، (رفد) .
٢ ابن الأثير ، الكامل (٢/١٣ وما بعدها) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٦١) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٢٠٧) .
٣ بلوغ الأرب (١/٢٤٧) .
٤ Ency., 4, P. 178.
٥ أنساب الأشراف ، للبلاذري (١/٥٢) .

صخرة ، فاستغاث قومه ، فلم يغيثوه ، فجعل يمدح قصيّاً ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه ، فمدحهم بأشعار كثيرة[1] .

ولم نعثر في نصوص المسند على اسم رجل يُدعى قصيّاً ، وإنما ورد في النصوص النبطية اسم علم لأشخاص . وهذا الاسم هو اسم صنم في الأصل ، بدليل ورود عبد قصيّ . أما حديث الأخباريين عن أصله وفصله ، فهو مما لا قيمة له . وقد ابتدعته مخيلتهم على الطريقة المألوفة في اختراع تفاسير لأسباب التسميات . والظاهر ان هذا الاسم من الأسماء التي كان يستعملها العرب النازلون في أعالي الحجاز ، وربما في بلاد الشأم .

وفي جملة النصوص النبطية التي عثر عليها في (صلخد) اسم رجل عرف بـ (روحو بن قصيو) (روح بن قصي) ، كما عثر على نصٍ جاء فيه اسم (مليكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ، وورد اسم (قصيو بن اكلبو) ، أي (قصي بن كلاب) . وقد تبين من هذه الكتابات ان المذكورين هم من أسرة واحدة ، وقد كانوا كهاناً أو سدنة لمعبد من معابد (صلخد)[2] . فقصي إذن من الأسماء الواردة عند النبط . والغريب أننا نرى بين قصي صلخد وقصي مكة اشتراكاً لا في الاسم وحده ، بل في المكانة ايضاً ، فلقصي صلخد مكانة دينية ، ولقصي مكة هذه المكانة أيضاً في مكة .

ويلاحظ ان الاسم الذي زعم الأخباريون انه اسم قصي الأصلي الذي سُمّي به يوم ولد بمكة ، وهو (زيد) ، هو أيضاً اسم صنم . فقد نص أهل الأخبار على ان (زيداً) هو صنم من أصنام العرب[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان لقصي أربعة أولاد ، ورووا قولاً زعموا انه قاله . فقد ذكروا انه قال : (ولد لي أربعة ، فسميت اثنين بصنمي ، وواحداً بداري ، وواحداً بنفسي) . وكان يقال لعبد مناف : القمر ، واسمه المغيرة ، وكانت أمه (حُبّى) دفعته الى مناف ، وكان أعظم أصنام مكة ، تديناً

---

١ ابن هشام ، السيرة (١٤٣/١) .

٢ رينو دبسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، تعريب عبدالحميد الدواخلي ، (ص ١١٦) ، تاريخ العرب في الاسلام ، لجواد علي (٤٠/١) .

٣ الاشتقاق (١٣) .

بذلك ، فغلب عليـــه عبد مناف[1] . وأولاده هم : (عبد مناف) ، واسمه (المغيرة) ، وعبد الله ، وهو (عبد الدار) ، و (عبد العزى) ، و (عبد قصي) ، و (هند) بنت قصي ، تزوجها (عبد الله بن عمّار الحضرمي)[2] .

ولما مات قصي ، دفن بالحَجُون ، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه[3] . والحجون جبل بأعلى مكة كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه[4] . فعليـــه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة . وقد ذكر في شعر جاهلي[5] .

وقد أنكر بعض المستشرقين وجود (قصي) ، وعدّوه شخصية خرافية من شخصيات الأساطير ، واستدلوا على ذلك بالأقاويل التي رواها ابن الكلبي وابن جريج عنه ، وهي ذات طابع قصصي[6] . غير ان هذه المرويات لا يمكـــن ان تكون دليلاً قوياً وسنداً يستند اليه في انكار وجود رجل اسمه قصي ، وإذا كان ما قيل عنه خرافة ، فلن تكون هذه الخرافة سبباً لإنكار وجود شخص قيلت عنه .

وقد ترك (قصي) جملة أولاد هم : عبد العزى وعبـــد الدار وعبد مناف وعبد بن قصي . وقد تكتل أبناء هؤلاء الأولاد وتحزبوا ، ونافسوا بعضهم بعضاً ، فنافس بنو عبد مناف بني عبـــد الدار ، وكونوا حلفاً فيما بينهم كان جماعتـــه وأنصاره بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم والحارث بن فهر . وتراص بنو عبد الدار وجمعوا شملهم وشمل من انضم اليهم ، وكونوا جماعـــة معارضة تألفت من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن عامر بن لؤي ومحارب . وهم من (قريش الظواهر) . وقد عرف حلف (بني عبد مناف) بـ (حلف المطيبين)

١ الطبري (٢/٢٥٤) ، نهاية الأرب (١٦/٣٢) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٥٢) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) ، (٢/١٤ وما بعدها) (المطبعة المنيرية) ، اليعقوبي (١/٢١٢)، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٣) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٢) ، نهـــاية الأرب (١٦/٣١) ، تاج العروس (١٠/٢١١) ، (صفا) .
٤ البلدان (٢/٢٢٥) .
٥ قال (عمرو بن الحارث بن مضاض) ، أو الحارث الجُرهمي :
كان لم يـــكن بين الحجـــون الى الصفا أنيـــس ، ولم يسمُر بمكـــة ســـامر
اللسان (١٣/١٠٩) ، تاج العروس (٩/١٧١) ، (حجن) .
٦ Ency., Vol., II, pp. 1158.

و بـ (المطيبون) ، وعرف بنو عبد الدار بـ (الاحلاف) .

ولما ظهر الاسلام ، كان هذا النزاع العائلي على رئاسة مكة قائماً ، وقد تمثل في تنافس الأسر على الرئاسة . اشتهر بعضها بالثراء والغنى ، واشتهر بعضها بالوجاهة الدينية أو بالمكانة الاجتماعية .

ويلاحظ ان هذا النزاع لم يكن نزاعاً عائلياً تماماً ، قام على النسب الى الأب والجد بل كان نزاعاً على الرئاسة والسيادة في الغالب ، فنجد جماعة من عائلة تنضم الى العائلة الأخرى المنافسة ، وتترك عشيرتها ، لأن مصلحتها الخاصة وتخاصمها مع أحد أقربائها دفعاها على اتخاذ ذلك الموقف .

ولما أسنّ قصي ، جعل لابنه (عبد الدار) على حدّ رواية أهل الأخبار دار الندوة والحجابة أي حجابة الكعبة ، واللواء ، فكان يعقد لقريش ألويتهم ، والسقاية وهي سقاية الحاج ، و (الرفادة) ، وهي خَرْج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي ليصنع به طعاماً للحاج يأكله الفقراء ، وكان قصي قد قال لقومه : (انكم جيران الله وأهل بيته ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم) ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من أموالهم ، فيصنع به الطعام أيام منى ، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية ، حتى قام الإسلام[1] .

ويذكر الأخباريون في تعليل إعطاء عبد الدار هذه الامتيازات ان عبد الدار كان ضعيفاً ، وان عبد مناف شقيقه كان قد ساد في حياة أبيه ، وكثر ماله ، فأراد قصي بذلك تقويته بهذه الامتيازات[2] .

وقد توارث بنو عبد الدار اللواء ، فلا يعقد لقريش لواء الحرب الا هم . وهي وظيفة مهمة جداً ، لما للواء من أثر خطير في الحروب والمعارك في تلك الأيام . ولهذا كانوا يتدافعون في الذَبّ عن اللواء ، حتى لا يسقط على الأرض بسقوط حامله ، وسقوطه معناه نكسة معنوية كبيرة تصيب المحاربين تحت ظل

---

١ الطبري (٢/٢٥٩ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢/١٠ وما بعدها) ، اللسان (٣/١٨١) ، تاج العروس (٢/٣٥٥) ، الأزرقي (١/٦١ وما بعدها) .

٢ ابن الأثير (٢/٩) ، نسب قريش ، للزبيري (١٤) .

ذلك اللواء . ولما أسلم (بنو عبد الدار) ، قالوا : يا نبيّ الله ، اللواء الينا . فقال النبي : الإسلام أوسع من ذلك . فبطل اللواء[1] .

ويذكر الأخباريون ان قصيّاً لما هلك ، قام (عبد مناف بن قصي) على أمر قصي بعده ، وأمر قريش اليه ، واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان بني عبد مناف أجمعوا على ان يأخذوا من بني عبد الدار (الرفادة) و (السقاية) ، فأبى بنو عبد الدار ترك ما في أيديهم واصروا على الاحتفاظ به ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار ، وطائفة مع بني عبد مناف ، وتحالف كل قوم مؤكداً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها عند الكعبة ، وتحالفوا ، وجعلوا أيديهم في الطيب ، فسموا المطيبين . وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم ، وتحالفوا ، فسموا الأحلاف ، وتعبأوا للقتال ، ثم تداعوا الى الصلح ، على ان يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، فرضوا بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، واقترعوا عليها ، فصارت لهاشم بن عبد مناف[3] .

وأما الذين كوّنوا حلف الاحلاف ولعقة الدم ، فهم : بنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدي بن كعب[4] .

وقد خرجت من ذلك (بنو عامر بن لُؤيّ) و (بنو محارب بن فهر) . فلم يكونوا مع واحد من الفريقين[5] .

---

١ البلاذري ، أنساب (١/٥٤ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٧) ، نهاية الأرب (١٦/٣٢) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) (١/٢٦٧) (المنربة) ، (١/١٨٣) ، الطبرى (٨/١١) (طبعة ليدن) اللسان (١٠/٤٠٠) ، ابن هشام (١/١٤٣) ، المعارف (٦٠٤) (دار الكتب) ، اليعقوبي (١/٢٨٧ (طبعة هوتسما) ، التنبيه (١٨٠) ، (الصاوي) ، ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٩) ، ابن خلدون ، (٢/٦٩٤) ، مروج (٢/٥٩) (السعادة) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، القاموس (٣/٢٨٠) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٥٦) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

وتذكر بعض الروايات ان (آل عبـد مناف) قد كثروا ، وقلّ (آل عبد الدار) ، فأرادوا انتزاع الحجابة من (بني عبد الدار) ، فاختلفت في ذلك قريش ، فكانت طائفة مع (بني عبد الدار) وطائفة مع (بني عبد مناف) ، فأخرجت (أم حكيم البيضاء) توأمة ابي رسول الله ، جفنـة فيها طيب ، فوضعتها في الحجر ، فقالت : من كان منّا فليدخل يده في هذا الطيب . فأدخلت عبد مناف ايديها ، وبنو اسد بن عبد العزّى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر ، فسمّوا المطيبين . فعمدت بنو سهم بن عمرو ، فنحرت جزوراً ، وقالوا : من كان منّا ، فليدخل يده في هذه الجزور ، فأدخلت ايديها عبد الدار وسهم ، وجمح ، ومخزوم ، وعدي ، فسُمّيت الاحـلاف . وقام الاسود بن حارثة بن نضلة ، فأدخل يده في الدم ، ثم لعقها ، فلعقت بنو عدي كلها بأيديها ، فسموا لعقة الدم .[1]

وتذكر رواية ان (بني عبد مناف) اقترعوا على الرفادة والسقاية فصارتا الى (هاشم بن عبد مناف) ، ثم صارتا بعده الى (المطلب بن عبد مناف) بوصية ، ثم لعبد المطلب ، ثم للزبير بن عبد المطلب ، ثم لأبي طالب . ولم يكن له مال ، فاستدان من اخيه العبّاس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم ، فأنفقها ، فلما لم يتمكن من رد المبلغ تنازل عن الرفادة والسقاية الى (العباس) : وأبرأ ابا طالب مما له عليه .[2]

وتذكر رواية اخرى ، ان هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفل بني عبد مناف أجمعوا ان يأخذوا ما بأيدي (بني عبد الدار) مما كان قصي جعل الى (عبد الدار) من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ، ورأوا أنهم أحق بها منهم ، فأبت (بنو عبـد الدار) ، فعقد كل قوم على امرهم حلفاً مؤكداً على الاّ يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً . وعرف حلف (بني عبد مناف) بحلف المطيبين وعرف حلف (بني عبد الدار) بحلف الاحلاف ولعقة الدم . ثم تداعوا الى الصلح ، على ان تكون الحجابة واللواء ودار الندوة الى بني عبد الدار ، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة .[3] وولي هاشم بن عبد مناف السقاية

---

١ نسب قريش (٣٨٣) .
٢ البلاذري ، انساب (٥٧/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) .

والرفادة .[1] وتصرح بعض الروايات ، ان هاشما هو الذي قام بأمر بني عبد مناف ، ثم عامر بن هاشم .[2]

ومعنى هذا ان الحلفين المذكورين : حلف المطيبين وحلف (الاحلاف) ، انما عقدا في حياة (هاشم بن عبد مناف) ، اي قبل ميلاد الرسول . وأن حلف (لعقة الدم) هو نفسه حلف الاحلاف ، او من حلف الاحلاف ، عرف بهذه التسمية ، لأن (بني عدي بن كعب ، الذين حالفوا عبد الدار وانضموا اليهم ، لعقوا الدم ، فقيل لهم لعقة الدم ، تمييزاً لهم عن الذين لم يلعقوا الدم ، وهم الاحلاف .[3] وذُكر ان (بني عبد الدار) و (بني عدي) ، أدخلوا جميعاً ايديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا كلهم (لعقة الدم) بذلك .[4]

ولكننا نصطدم بروايات اخرى ، ترجع تأريخ حلف (لعقة الدم) الى ايام بنيان الكعبة ، الذي كان قبل المبعث بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . فهي تذكر ان اهل مكة لما وصلوا الى موضع الركن اختصموا في وضع الحجر الاسود ، حتى تجاوزوا وتحالفوا وتواعدوا على القتال ، (فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماء ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا لعقة الدم بذلك)[5] ، ثم اتفقوا على ان يجعلوا بينهم حكماً ، يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، على ان يكون اول من يدخل من باب المسجد ، فكان اول من دخل عليهم رسول الله . فحكم على نحو ما هو معروف .

كما نصطدم بروايات اخرى تذكر ان حلف المطيبين ، انما عرف بذلك ، لان خمس قبائل هي : بنو عبد مناف ، وبنو اسد ، وبنو تيم ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، لما ارادت بنو عبد منـاف اخذ ما في ايدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية وأبت بنو عبد الدار تسليمها اياهم — اجتمع المذكورون في دار عبد الله بن جدعان ، وعقد كل قوم على امرهم حلفاً

١ ابن سعد ، طبقات (١/٧٨) .
٢ نهاية الأرب (١٦/٣٤ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (١/ ٥٦) .
٤ الطبري (٢/٢٨٩ وما بعدها) .
٥ الطبري (٢/٢٩٠) .

مؤكداً على التنـــاصر وأن لا يتخاذلوا ، ثم اخرج لهم بنو عبد مناف جفنة ثم خلطوا فيها اطياباً وغمسوا ايديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً فسُمّوا المطيبين . وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها وهم ست قبائل : عبد الدار وجمح ومخزوم وعدي وكعب وسهم حلفاً آخر مؤكداً ، فسُمّوا بذلك الاحلاف .[1]

وقيل بل قدم رجل من بني زيد لمكة معتمراً ومعه تجارة اشتراها منه رجلٌ سهمي فأبى ان يقضيه حقه فناداهم من أعلى ابي قبيس ، فقاموا وتحالفوا على انصافه ، وكان النبيّ من المطيبين لحضوره فيه ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وكذلك ابو بكر . وكان عمر احلافياً لحضوره معهم .[2]

وقد وهم بعض اهل الاخبار فجعلوا حلف المطيبين هو حلف الفضول ، ويظهر انهم وقعوا في الخطأ من كون الذين دعوا الى عقد حلف الفضول وشهدوه هم من (المطيبين) ، فاشتبه الامر عليهم ، وظنوا ان الحلفين حلف واحد . وقد ردّ عليهم بعض اهـــل الاخبار ايضاً ، اذ ذكروا ان الرسول لم يدرك حلف المطيبين ، لانه كان وقع بين بني عبد مناف ، وهم هاشم واخوته ومن انضم اليهم ، وبين بني عمهم عبد الدار واحلافهم ، فقيل لهم الاحلاف ، قبل ان يولد الرسول .[3]

اما ان الحلفين قد عقـــدا في ايام (عبد الله بن جدعان) ، فخطأ ، فقد اجمع اهل الاخبار على ان بني عبد مناف كانوا يلون الرفادة والسقاية قبل هذا العهد ، وأن (هاشم) كان يليها في حياته ، وأما انهما وقعا في ايام (هاشم) او في ايام ابنائه ، فان ذلك اقرب الى المنطق ، وذلك فيما اذا اخذنا برواية من يقول : ان (قصيّاً) اوصى بالرفادة والسقاية واللواء والحجابة ودار الندوة الى ابنه (عبد الدار) ، وحرم بذلك ابنه (عبد مناف) من كل شيء ، بحجة انه كان غنياً ، وجيهاً وقد ساد في حياة ابيه ، فلا حاجة له به اليها ، فتأثر هاشم او ابناؤه من ذلك ، فأجمعوا على انتزاعها من ايدي (بني عبد الدار) وحدث ما حدث ، وتولى هاشم الرفادة والسقاية على النحو المذكور .[4]

---

١ تاج العروس (١/٣٥٩ وما بعدها) ، العمدة (٢/١٩٤) ، البلاذري ، انساب (١/٥٦ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

٢ تاج العروس (١/٣٦٠) .

٣ السيرة الحلبية (١/١٥٦) .

٤ (ولما صارت الرفادة والسقابة لهاشم ، كان يخرج من ماله كل سنة للرفادة مالا عظيما) ، البلاذري ، أنساب (١/٦٠) .

وهناك رواية اخرى رواهـا (اليعقوبي) ، تفيد ان قصيّاً كان قد قسم السقاية والرفادة والرئاسة والدار بين ولده . فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف ، والدار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العزّى ، وحافة الوادي لعبد قصيّ . [1] وأخذ كل ابن ما اعطاه والده له .

ويتبين من دراسة الروايات المختلفة الواردة عن الحلفين المذكورين ، انهما قد عقدا لاغراض اخرى لا صلة لها بالسقاية والرفادة ، وربما كانا قد عقدا قبل ايام هاشم ، بسبب نزاع وقع بين بطون قريش على الزعامة ، فتحربت تلك البطون وانقسمت على نفسها الى (مطيبين) و (احلاف) ، وربما كان حلف لعقة الدم حلفاً آخر عقده (بنو عدي) فيما بينهم ، وهم الذين انحازوا الى الاحلاف ، ودخلوا معهم في حلف . خاصة ونجد (اليعقوبي) يشير الى حلف عقـده (عبد مناف) بعد وفاة والده (قصي) مع (خزاعة) و (بني عبد منـاة ابن كنانة) ، عرف بحلف (الاحابيش) . وكان مدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف (عمرو بن هلل بن معيص) . [2] مما يشير اذا صح هـذا الخبر الى ان (بني مناف) او الذين انضموا اليهم ، كما يقول ذلك (اليعقوبي) ارادوا تقـوية انفسهم وتكوين قوة مهابة بتأليف ذلك الحلف . وربما كان هذا الحلف موجهاً ضد (بني عبد الدار) مما دفع (بني عبد الدار) على جمع صفوفهم وتأليف حلف بهم ، للدفاع عن مصالحهم .

واسم هاشم على رواية الاخباريين (عمرو) وهو اكبر اولاد عبد مناف . وانما قيل له هاشم ، لانه اول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . ذكر ان قومه من قريش ، كانت اصابتهم لزبة وقحط ، فرحل الى فلسطين ، فاشترى منها الدقيق ، فقدم به مكة ، فأمر به فخبز له ونحر جزوراً ، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك . [3] ويذكرون ان شاعراً من الشعراء ، هو مطرود بن كعب الخزاعي ،

١ اليعقوبي (١/٢١١) ، (طبعة النجف) .
٢ اليعقوبي (١/٢١٢) .
٣ الطبري (٢/٢٥١ وما بعدها) ، اللسان (١٢/٦١١) ، العاموس (٤/١٩٠) ، الكامل لابن الأثير (٢/٩) .

او ابن الزبعرى ، ذكر ذلك في شعره حيث قال :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسنِتون عجاف [1]

ويظهر من وصف الاخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشام ، وأنه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو اول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف . [2]

ويذكر اهل الاخبار ان هاشماً كان يحُثّ اهل مكة على اكرام الحجاج واضافتهم وتقديم كل معونة لهم ، لانهم يأتون يعظّمون بيت الله ، ويزورونه ، وهم جيران بيت الله ، وقد أُكرموا به ، وشرفوا بالبيت على سائر العرب ، فعليهم تقديم كل معونة لحجاج البيت . وكان يطلب منهم مساعدته باخراج ما يتمكنون من اخراجه من اموالهم يضعونه في دار الندوة ، ليخدم به الحجاج ، لانه لا يتمكن وحده من اكرامهم وتقديم الطعام من ماله وحده اليهم . [3] فكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيراً ، وكان قوم من قريش اهل يسار يترافدون . وكان كل انسان يرسل بمئة مثقال هرقلية ، فيجمع هاشم ما يتجمع ويصنع به طعاماً للحجاج . [4]

ولشح الماء في مكة ، واضطرار الناس الى جلبه من اماكن بعيدة ، فعل (هاشم) ما فعله قصيّ حين حفر بئراً على نحو ما ذكرت ، فحفر بئراً عرفت بـ (بذّر) وهي البئر التي في حق (المقوم بن عبد المطلب) في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء في اصل المستنذر . وحفر بئراً اخرى ، وهي البئر التي يقال لها بئر (جبير بن مطعم) ، ودخلت في (دار القوارير . [5] فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على اكثاره عندهم .

---

١ عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنون عجاف
الطبري (٢/٢٥٢) ، الاشتقاق (٩) ، أمالي المرتضى (٢/٢٦٩) ، أخبار مكة للأزرقي (١/٦٧) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٣) .

٢ الطبري (٢/٢٥٢) (دار المعارف بمصر) .
وهو الذي سن الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأصياف
البلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٥) .

٣ النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٤) .

٤ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٨) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٦٧) ، تاج العروس (٣/٣٦) ، (بدر) .

وأخذ (هاشم) عهداً على نفسه بأن يسقي الحجاج ويكفيهم بالماء ، قُربةً الى رب (البيت) ما دام حياً . فكان إذا حضر الحج ، يأمر بحياض من أدم ، فتجعل في موضع (زمزم) ، ثم تملأ بالماء من الآبار التي بمكة ، فيشرب منها الحاج . وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمِنى وعَرفَة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء ، فيستقون بمنى ، والماء يومئذ قليل في حياض الأدم الى ان يصدروا من (منى) ، ثم تنقطع الضيافة ، ويتفرق الناس الى بلادهم [1] .

وموضوع السقاية موضوع غامض . فبينما نجد أهل الأخبار يفسرون السقاية باسقاء المحتاجين من الحجاج بالماء مجاناً ، نجدهم يتحدثون عن السقاية على انها إسقاء الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء . وذكر ان العباس كان يليها في الجاهلية والإسلام [2] .

وتحدث أهل الأخبار عن (سقاية) عرفت بـ (سقاية عديّ) ، زعموا انها كانت بالمشعرين بين الصفا والمروة ، وان مطرود الخزاعي ذكرها حين قال :

وما النيل يأتي بالسفين يكفّه بأجود سيباً من عديّ بن نوفل
وأنبطت بين المشعرين سقاية لحجاج بيت الله أفضل منهل

وذكر ان هذه السقاية ، كانت بسقاية اللبن والعسل [3] .

ويظهر من وصف الأخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشأم ، وانه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف [4] . وانه كان صاحب (إيلاف قريش) [5] .

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٨) النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٥) .
٢ تاج العروس (١٠/١٨١) . ، (سقى) .
٣ نسب قريش (١٩٧) .
٤ الطبري (٢/٢٥٢) ، (دار المعارف بمصر) .
وهو الذى سنّ الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأصياف
البلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥) ، تفسير القرطبي (٢٠/٢٠٥) ، (سورة قريش) .
نهاية الأرب (١٦/٣٣) .

وذلك ان قريشاً كانوا تجاراً ، ولكن تجارتهم – كما يقول أهل الأخبار – لم تكن تتجاوز مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب . فكانوا كذلك حتى ركب هاشم ابن عبد مناف الى الشأم ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ، فدعا به فلما رآه وكلمه ، أعجب به . فكان يبعث اليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : أيها الملك : إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحي من العرب بطريقه الى مكة ، عقد معهم عقداً على ان تقدم قريش اليهم ما يرضيهم من بضائع وهدايا تؤلف بينهم وبين قريش ، فكان الإيلاف . فلما وصل الى مكة ، كان هذا الإيلاف أعظم ما جاء به هاشم الى قريش . فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم بجوزهم يوفيهم إيلافهم الذي أخذ من العرب حتى أوردهم الشأم ، وأحلهم قراها . فكان ذلك بدء إيلاف قريش [1] .

وذكر ان متجر (هاشم) كان الى بلاد الشأم [2] ، ويصل بتجارته الى (غزة) وناحيتها ، وربما توغل نحو الشمال ، حتى زعم بعض أهل الأخبار انه كان ربما بلغ (أنقرة) (فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه) [3] . ويجب علينا ألا نتصور دائماً ان أي (قيصر) يرد ذكره في أخبار أهل الأخبار ، هو قيصر الروم حقاً ، بل هو أحد عمّاله في الغالب ، وأحد الموظفين الروم في بلاد الشأم ، وربما كان أحد قادة الحدود . وربما أخذوا اسم (أنقرة) من قصة للشاعر امرؤ القيس ، فأدخلوها في قصة (هاشم) . فلم تكن (أنقرة) ، مقرّاً

١ القالي ، ذيل الآمالي والنوادر (ص ١٩٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، (٨/١ وما بعدها) ،
Caetani, Annali, I, 109, (90), M.J. Kister, p. 116

٢ المحبر (١٦٢) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٣/١٦) ، البلاذري ، أنساب (٥٨/١) .

للقياصرة إذ ذاك حتى يذهب هاشم اليها ليدخل على قيصر ويزوره فيها ، بل كانت (القسطنطينية) ، هي عاصمة البيزنطيين .

وقد فسر (الجاحظ) (الإيلاف) ، انه "جعلٌ" فرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك ومن المتطاولين ، إذْ قال : (وقد فسَّره قوم بغير ذلك . قالوا : ان هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائل ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً . مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب)[1] . فيفهم من ذلك إذن ان الإيلاف ، هو نوع من تأليف قلوب سادات القبائل ، لصدهم عن التحرش بأهل مكة ومن التعرض بقوافلهم ، فألفهم هاشم وصاروا له مثل (المؤلفة قلوبهم) في الإسلام . لا سيما وان بين الإيلاف و (ألف) (ألف بينهم) و (المؤلفة) صلة . وان فيما قاله (الجاحظ) عن (هاشم) من قوله : (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربحاً)[2] ، وبين تأليف القبائل صلة تامة ، تجعل تفسير الإيلاف على انه عهود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل اسهامهم بأموالهم وبحمايتهم لقوافل قريش في مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاماً من الأرباح تؤدى لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وما ربحته في الأسواق هو تفسير منطقي معقول . وبذلك كسبت قريش حياد هذه القبائل ودفاعها عن مصالحها .

وقد تعرض (الثعالبي) لموضوع (إيلاف قريش) ، فقال : إيلاف قريش : كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها من مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ ، وفي الأشهر الحرام لا تبرح دارها ، ولا تجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم ، والحب لحرمهم ، والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم ، وكانوا بواد غير ذي زرع ... فكان أول من خرج الى الشأم ووفد الى الملوك وأبعد في السفر ومرّ بالأعداء ، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف ، وكانت له رحلتان : رحلة في الشتاء نحو العباهلة من

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، (السندوبي) ، Kister, p. 143.

٢ رسائل (٧٠) ، السندوبي) (٧٠) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .

ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وكا يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين : إحداهما ان ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الاخرى ان اناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبني طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤنة الأعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذ كان المقيم رابحاً ، والمسافر محفوظاً ، فأخصبت قريش ، وأتاها خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها ، وطاب عيشها . ولما مات هاشم قام بذلك المطلب ، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل ، وكان أصغرهم)[1] .

والى هذا الإيلاف أشير في شعر (مطرود الخزاعي) بقوله :

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا حللت بآل عبد مناف
الآخذين العهد في إيلافهم ... والراحلين برحلة الإيلاف[2]

وعمل قريش هذا هو عمل حكيم ، بدّل وغيّر اسلوب تجارة مكة ، بأن جعل لها قوافل ضخمة تمر بأمن وبسلام في مختلف أنحاء الجزيرة جاءت اليها نتيجة لذلك بأرباح كبيرة ، ما كان في امكانها الحصول عليها ، لو بقيت تتاجر وفقاً لطريقتها القديمة ، من ارسالها قوافل صغيرة للمتاجرة مع مختلف الأسواق ، فكانت القافلة منها اذا سلبت ، عادت بأفدح الأضرار المادية على صاحبها أو على الأسرة التي أرسلتها ، وربما أنزلت الإفلاس والفقر بأصحابها ، بينما توسعت القافلة وفقاً للطريقة الجديدة بأن ساهم بأموالها كل من أراد المساهمة ، من غني أو صعلوك أو متوسط حال ، ومن سادات قبائل . وبذلك توسع الربح ، وعمت فائدته عدداً كبيراً من أهل مكة ، فرفع بذلك من مستواها الاجتماعي ، كما ضمن لقوافلها الأمن والسلامة ، وصيّر مكة مكاناً مقصوداً للأعراب .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٦) .

ويذكر أهل الاخبار أنه كان المطلب وهاشم وعبد شمس ، ولد عبد مناف من أمهم : (عاتكة بنت مرّة السُلمية) ، و (نوفل) من (واقـدة) ، قد سادوا بعد أبيهم عبد مناف جميعاً ، وكان يقال لهم : (المجبرون) ، وصار لهم شأن وسلطان . فكانوا اول من أخذ لقريش (العِصَم) [1] ، اي (الحبال) ، ويراد بها العهود . أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الروم وغسّان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الاكبر ، فاختلفوا بذلك السبب الى ارض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبـلاً من الاكاسرة . فاختلفوا بذلك السبب الى ارض العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب الى اليمن ، فجُبرت بهم قريش ، فسمّوا المجبرين . [2] حتى ضرب بهم المثل ، فقيل : أقرش من المجبرين . والقرش الجمع والتجـارة ، والتقرش التجمع . والمجبرون هم الاربعة المذكورون . [3]

وفي رواية اخرى ان (المطلب) هو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها الى ارضه . وأن هاشم ، هو الذي عقد الحلف لقريش من (هرقل) لأن تختلف الى الشام آمنة . ولو اخذنا بهذه الرواية وجب ان يكون هاشم قد أدرك ايام (هرقل) (٦١٠ — ٦٤١) (Heracleous I) ، وهو امر غير ممكن . لأن معنى ذلك انه عـاش في ايام الرسول وأدرك رسالته . ولا يهم ورود اسم (هرقل) في هذه الرواية ، فأهل الاخبار لا يميزون بين ملوك الروم ، ويذكرون اسم (هرقل) ، لانه حكم في ايام الرسول وفي ايام الخلفاء الراشدين الأُول .

واذا صحت الرواية ، يكون (آل عبـد مناف) ، قد احتكروا التجارة وصاروا من أعظم تجار مكة . وقد وَزّعوا التجارة فيما بينهم ، وَخصّوا كل بيت من بيـوتهم الكبيرة بالاتجار مع مكان من امكنة الاتجار المشهورة في ذلك العهد ، وأنهم تمكنوا بهذه السياسة من عقد عقود تجارية ومواثيق مع السلطات الاجنبية التي تاجروا معها لنيل حظوة عندها ، ولتسهيل معاملاتها التجارية ، فجنَوا

---

١ العِصَم ، بكسر ففتح .
٢ الطبرى (٢/٢٥٢) ، المعقوبى (١/٢٠٠) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، امالي المرتضى (٢/٢٦٨) .
٣ مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، البلاذري ، انساب (١/٥٩) .

من هذه التجارة ارباحاً كبيرة .

فما كان في استطاعة (قريش) ارسال (عيرها) الى بلاد الشام او العراق او اليمن او العربية الجنوبية ، بغير رضاء وموافقة سادات القبائل التي تمر قوافل قريش بأرضها ؛ ورضاء هؤلاء السادات بالنسبة لقريش هو أهم جداً من رضاء حكومات بلاد الشام او العراق او اليمن عن مجيء تجار مكة الى بلادها للاتجار في اسواقها ، فما الفائدة من موافقة حكومات تلك البلاد على مجيء تجار مكة للبيع والشراء في اسواقهـــا ، ان لم يكن في وسع اولئك التجار تأمين وصول تجارتهم اليها ، او تأمين سلامة ما يشترونه من اسواقها لايصاله الى مكة او الى الاسواق الاخرى . لهذا كان من اهم ما فعله تجار مكة في هذا الباب ، هو عقـــدهم (حبالاً) و (عصماً) وعهوداً مع رؤساء القبائل ، لترضيتهم بدفع جعالات معينة لهم او تقـــديم هدايا والطاف مناسبة مغرية لهم ، او اشتراكهم معهم في تجارتهم . يقول الجاحظ في باب (فضل هاشم على عبد شمس) ، (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجُعل لهم معه ربح) . [1] وبهذه العقود المتنوعة سيطر تجار قريش على الاعراب ، وحافظوا على اموالهم ، وحدّوا من شره فقراء ابناء البادية الى الغنائم . وصار في امكانهم الخروج بكل حرية من مكة ومن الاسواق القريبة منها بتجارتهم نحو الاماكن المذكورة بكل أمن وسلام .

ولما كان البحث في هذا الموضع ، هو في تأريخ مكة بصورة عامة ، لذلك فسأترك الكلام عن (الايلاف) الى الموضع المناسب الخاص به ، وهو التجارة والاتجار ، وعندئذ سأتكلم عنه بما يتمم هذا الكلام العام .

ويذكر اهل الاخبار ان عبد شمس وهاشماً توأمان ، وقد وقع بينهما تحاسد ، وانتقل هذا التحاسد الى ولد الاخوين ، حتى في الاسلام .

وذكروا ان (أمية بن عبد شمس) حسد عمّه هاشماً ، وكان أمية ذا مال ، فدعا عمّه الى المنافرة ، فرضي عمّه بذلك مكرهاً ، على ان يتحاكما الى الكاهن (الخزاعي) ، فنفّر هاشماً عليه ، فأخذ هاشم الإبل التي نافر عليها من أمية ، فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية الى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، بحسب حُكم الكاهن ، وكان هاشم قد نافر على الجلاء عن مكة عشر سنين .

---

١ الجاحظ ، رسائل (٧٠) ، السندوبي) ،

فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم وأمية . [1]

ويذكر اهـل الاخبار ان أمية بن عبد شمس كان من جملة من ذهب من رجال مكة الى (سيف بن ذي يزن) لتهنئته بانتصار اليمن على الحبش وطردهم لهم . وقد دخل عليه مع وفد مكة في (قصر غمدان) . وكان مثل ابيه عبد شمس حامل لواء قريش ، اي انه كان يحملها في الحرب . [2]

وكان هاشم اول من مات من ولد عبد مناف ، مات بغزة فعرفت بـ (غزة هاشم) ، وكان قد وفد بتجارة اليها فمات بها ، ومات عبد شمس بمكة ، فقبر بأجياد ، ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق ، ثم مات المطلب بردمان من ارض اليمن . [3] ويتبين من ذلك ان جميع هؤلاء الاخوة ، ما خلا عبد شمس ، ماتوا في ارض غريبة ، ماتوا تجاراً في تلك الديار .

وورد في رواية اخرى ، ان هاشماً خرج هو وعبـد شمس الى الشام ، فماتا جميعاً بغزة في عام واحد . وبقي مالهما الى ان جاء الاسلام . [4]

وأجياد جبل مكة على رأي ، وموضع مرتفع في الذرا غربيّ (الصفا) كما ورد ذلك في شعر للأعشى . ذكر ان (مضاضاً) ضرب في ذلك الموضع اجياد مائة رجل من العمالقة ، فسمّي الموضع بذلك (اجياد) . [5]

ويذكر الاخباريون : ان هاشماً كان قد خرج في عير لقريش فيها تجارات ، وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بـ (سوق النبط) ، فصادفوا سوقاً مقامة ، فباعوا واشتروا ، ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق تأمر بما يشترى ويباع لها . وهي حازمة جلدة مع جمال ، فسأل هاشم عنها : أأيّم هي ، أم

---

١ الطبري (٢/٢٥٢ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٩) ، (الطباعة المنيرية) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٤) ، انسان العيون (١/٤٠)، سيرة ابن دحلان (١/١٥ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٠٣) ، دائرة المعارف الاسلاميه (١/٣٢٤) .

٣ الطبري (٢/٢٥٤) ، ابن الأثير (٢/٧) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (١/٨٣) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، البلاذري ، أنساب (١/٦٣) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٩) .

٤ نهاية الأرب (١٦/٣٧) ، الكامل لابن الأثير (٢/٤ وما بعدها) ، الطبـري (٢/١٧٦) .

٥ تاج العروس (٢/٣٣٠) ، (الجيد) .

ذات زوج ؟ فقيل له : أيّم ، كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها ان امرها بيدها : فاذا كرهت رجلاً ، فارقته ، وهي (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنيم بن عديّ بن النجار) ، وهو (تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج) ، فخطبها فزوّجته نفسها ، ودخل بها ، وصنع طعاماً ، دعا اليه من كان معه من اهل مكة ، ودعا من الخزرج رجالاً . وأقام بأصحابه اياماً ، وعلقت (سلمى) بعبد المطلب . [1] وكانت (سلمى) ، قد تزوجت من (أُحَيْحَة بن الجُلاّح بن الحريش بن جَحْجَبا الأوسي) ، وهو من المعروفين في قومه كذلك . [2]

ويذكر اهل الاخبار ، ان عمر هاشم لما توفي ، كان عشرون سنة ، ويقال خمساً وعشرين . [3] وهو عمر قصير اذا قيس بما يذكره اهل الاخبار ويوردونه عنه من اتجار وأعمال ، اعمال لا تتناسب مع تلك السن .

ومن سادات مكة في هذه الايام (قيس بن عدي بن سهم) من بني هصيص ابن كعب) ، قد تكاثروا بمكة ، حتى كادوا يعدلون بعبد مناف . وهو الذي منع (عديّ بن كعب) و (زهرة بن كلاب) من (بني عبد مناف) ، ومنع (بني عديّ) ايضاً من (بني جمح) . وكان (عبد المطلب بن هاشم) ينفر ابنه (عبد المطلب) ، وهو صغير ، ويقول :

كأنه في العز قيس بن عديّ في دار قيس يرتدى اهل الندى [4]

مما يدلّ ان صح ان هذا الشعر هو من شعر (عبد المطلب) حقاً ، على ان (عديّاً) كان اعزّ رجال قريش في ايامه ، حتى ضربوا به المثل في العزّ . وأنه كان سيّد قومه : بنو سهم بن هصيص بن كعب .

ومن ولد هاشم (عبد المطلب) ، وأمه من اهل يثرب من بني النجار فهي

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٦) ، ابن هشام ، السيرة (١/١٤٤) ، نهاية الأرب (١٦/٣٦ وما بعدها) ، المحبر (ص ٣٩٨) ، الطبري (٢/٢٤٦ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٢ المحبر (ص ٤٥٦) ، البلاذري ، أنساب (١/٦٤) .

٣ البلاذري ، أنساب (١/٦٣) .

٤ نسب قريش (٤٠٠) .

خزرجية تدعى (سلمى بنت عمرو بن زيد) على نحو ما ذكرت قبل قليل . تزوّجها هاشم في اثناء رحلة من رحلاته التي كان يقوم بها الى الشام للاتجار . ولما مـات هاشم بغزة ولدت سلمى (عبـد المطلب) ، ومكث عنـد أخواله سبع سنين ، ثم عاد الى قومه بمكة ، عاد به عمه (المطلب) . ولما كبر تولى السقاية والرفادة وتزعم قومه .

ويذكر أهل الأخبار ، ان هاشماً كان قد أوصى الى أخيه (المطلب) ، فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة . وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد[1] . ومعنى هـذا ان نزاعاً كان قد وقع بين أبناء هاشم وأبناء إخوته ، جعلهم ينقسمون الى فرقتين .

ويذكر أهل الأخبار ان اسم عبد المطلب ، هو (شيبة) . وقد عرف بين الناس بعبد المطلب ، لان عمّه (المطلب) لما حمله من يثرب الى مكـة ، كان يقول للناس ، هذا عبدي ، أو عبدٌ لي ، فسُمّي من ثمّ بعبد المطلب ، وشاعت بين قومه أهل مكة حتى طغت على اسمه . وقيل انه عرف بين أهل مكة بـ (شيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفيّاض) لجودة ، و (مطعم طير السماء) و (مطعم الطير) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال[2] .

وقد كان (المطلب) عمّ (عبد المطلب) مثل سائر أفراد أسرته وأهل مكة تاجراً ، فخرج الى أرض اليمن تاجراً ، فهلك بـ (ردمان) من اليمن[3] .

وهم يروون انه كان مفزَع قريش في النوائب ، وملجأهم في الأمور ، وانه كان من حلماء قريش وحكمائهـا ، وممن حرم الخمر على نفسه ، وهو أول من

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٧٩) .

٢ وفيه يقول حذافة بن غانم :

بنو شيبة الحمد الـذي كان وجهـه يضيء ظـلام الليل كالقمـر البدر

(شيبة الحمد لنور وجهه ، وذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين ولد ، فسمي شيبة الحمد) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) ، الطبري (٢/٢٤٧ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) ، الأصنام (٢٨) ، بلوغ الأرب (١/٣٢٤) ، ابن حزم ، جوامع السير (٢/٢) ، البداية ، لابن كثير (٢/٢٥٢) ، السيرة الحلبية (١/٢٢ وما بعدها) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (١/٨١) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٣) .

٣ طبقات ابن سعد (١/٨٣) ، اليعقوبي (١/٢١٦) .

تحنث بغار حراء . والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد . وكان اذا دخـل شهر رمضان ، صعده وأطعم المساكين ، وكان صعوده للتخلي من الناس ، ليتفكر في جلال الله وعظمته[1] . وكان يعظم الظلم بمكة ، ويكثر الطواف بالبيت[2] .

وذكر انه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هـذه الدار ، داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باساءته . ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ووحّد الله . وروي : انه وضع سناً جـاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها . منها : الوفـاء بالنذر ، وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عُريان[3] . وذكر انه كان أول من سنّ دية النفس مئة من الإبل ، وكانت الدية قبل ذلك عشراً من الإبل ، فجرت في قريش والعرب مئة من الإبل . وأقرها رسول الله على ما كانت عليه[4] .

ويذكرون ان قريشاً كانت اذا أصابها قحط شديد ، تأخذ بيد عبد المطلب ، فتخرج به الى جبل ثَبير ، تستسقي المطر[5] .

وقد وقع خلاف بين عبد المطلب وعمه (نوفل) ، كان سببه ان نوفل بن عبد مناف ، وكان آخر من بقي من بني عبد مناف ، ظلم عبـد المطلب على أركاح له ، وهي الساحات ، فلما أصر نوفل على انكاره حق عبـد المطلب ، تدخل عقلاء قريش في الأمر على رواية أهل مكة ، أو أخوال عبد المطلب ، وهم من أهـل يثرب . فأكره (نوفل) على إنصاف عبد المطلب حتى عـاد اليه حقه[6] .

ومن أهم أعمال (عبد المطلب) الخالدة الى اليوم (بئر زمزم) في المسجد الحرام ، على مقربة من البيت . وهي بئر يذكرون انها بئر اسماعيل ، وان جرهماً

---

١ السيرة الحلبية (١/٢٢ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٨٤) .
٣ السيرة الحلبية (١/٢٤ وما بعدها) .
٤ ابن أبي الحديد (١/٨٩) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٩) .
٥ السيرة الحلبية (١/٢٤ وما بعدها) .
٦ الطبري (٢/٢٤٨ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

دفنتها ، وانها تقع بين أساف ونائلة في موضع كانت قريش تنحر فيه . فلما حفرها (عبد المطلب) ، أقبل عليها الحجّاج وتركوا سائر الآبار [1] .

ويذكر أهل الأخبار ان عبد المطلب لما كشف عن بئر زمزم ، وجد فيها دفائن ، من ذلك غزالان من ذهب ، كانت جرهم دفنتهما ، وأسياف قلعية ، وأدراع سوابغ ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب أحد الغزالين صفائح من ذهب ، وجعل المفتاح والقفل من ذهب فكان أول ذهب حُلّيته الكعبة [2] . وجعل الغزال الآخر في الجبّ الذي كان في الكعبة أمام هبل . وذكر ان قريشاً ارادت منعه من الحفر ، ولكنه أصر على ان يحفر حتى يصل الى موضع الماء ، وذلك بسبب رؤيا رآها ، عينت له المكان ، وأوحت اليه انه موضع بئر قديمة طمرت وعليه إعادة حفرها [3] .

ويذكر الأخباريون ، ان عبد المطلب ، لما حلى بالمال الذي خرج من بئر زمزم الكعبة ، جعله صفائح من ذهب على باب الكعبة . فكان أول ذهب حُلّيته الكعبة [4] . وتذكر بعض الروايات ، ان ثلاثة نفر من قريش عدَوا على هذا الذهب وسرقوه [5] . وتذكر رواياتهم انه ضرب الأسياف التي عثر عليها في البئر باباً للكعبة ، وضرب بالباب الغزالين من ذهب [6] .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لما فعله (عبد المطلب) من ضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة ، ومن جعل المفتاح والقفل من ذهب ، أو من ضرب أحد الغزالين صفائح على الباب ، وجعل الغزال الآخر في الجبّ الذي كان أمام (هُبَلْ) أي الغبغب ، ان الكعبة لم تكن على نحو ما يصفها أهل الأخبار من البساطة والسذاجة . بغير سقف وذات جدر ضمة بقدر قامة انسان . إذْ لا يعقل

---

١ ابن الأثير (٢/٥ وما بعدها) ، الطبري (٢/٢٤٧)، البلاذري، أنساب (١/٧٨).
٢ الطبري (٢/٢٥١) ، البداية (٢/٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥) ، أخبار مكة (١/٢٨٢)، ابن الأثير (٢/٧ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٥) ، البلاذري ، أنساب (١/٧٨) .
٣ أخبار مكة (٢٨٤ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي (١/٢١٨) ، الطبري (٢/٢٥١) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٥) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٨٥) .
٦ سيرة ابن دحلان (١/٢٦) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

ان يضرب وجه باب الكعبة بالذهب وتوضع في داخلهـا تلك النفائس وهي على تلك الحالة ، اللهم إلا اذا شككنا في أمر هذه الروايات وذهبنا الى انها من نوع القصص الذي وضعه أهل الأخبار .

وقد طغى ماء (بئر زمزم) على مياه آبار مكة الأخرى . فهو أولاً مـاء مقدس ، لانه في أرض مقدسة ، وفي المسجد الحرام ، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى ، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدلاء منه ، ثم انه ألطف مذاقاً من مياه آبار مكة الأخرى . وقد استفاد (عبد المطلب) من هذه البئر ، مادياً وأدبياً ، وصارت ملكاً خالصة له ، على الرغم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له في حق هذه البئر ، لانها في أرض الحرم ، والحرم حرم الله ، وهو مشاع بين كل أهل مكة . وصار يسقي الحجاج من هذه البئر ، وترك السقي من حياض الأدم التي كانت بمكة عنـد موضع بئر زمزم ، وصار يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقي الحاج [1] .

وكان أبناء (قصي) قبل حفر بئر (زمزم) يأتون بالماء من خارج مكة — كما يقول أهل الأخبار — ثم يملأون بهـا حياضاً من أدم ويسقون الحجاج ، جروا بذلك على سنة (قصيّ) ، فلما حفرت بئر زمزم ، تركوا السقي بالحياض من المياه المستوردة من خارج مكة ، وأخذوا يسقونهم من ماء زمزم [2] .

وقد كان عبد المطلب يزور اليمن بين الحين والحين ، فكان اذا وردها نزل على عظيم من عظماء حمير . ويذكر أهل الأخبار ان أحد هؤلاء علّم عبد المطلب صبغ الشّعر ، وذلك بأن أمر بـه فخضب بحنّاء ، ثم عُلِيَ بالوسمة ، وصار يصبغ شعره بمكة ، وخضب أهل مكة بالسواد [3] . ويذكر أهل الأخبار ايضاً انه اتصل بملوك اليمن ، وأخذ منهم إيلافاً لقومه ، بالاتجار مـع اليمن . وكانت قريش تنظم عيراً الى اليمن في كل سنة [4] .

---

١ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٣ ، سيرة ابن هشام (١/٨٩) ، أخبار مكة (٢٨٥ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/٣٧) ، الروض الأنف (١/٩٧) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٨٣) .

٣ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٦) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٦) .

٤ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) .

ويذكر (المسعودي) ان (معديكرب) حينما ولي الملك باليمن ، أتته الوفود لتهنئه بالملك . وكان فيمن وفد عليه من زعماء العرب ، (عبد المطلب) ، و (خويلد بن أسد بن عبد العزّى) وجد أميّة بن أبي الصلت ، وقيل : أبو الصلت أبوه . فدخلوا عليه في قصره بمدينة صنعاء : قصر غمدان . ويذكر له ، كلاماً قاله عبد المطلب له ، وجواب (معد يكرب) عليه . ويذكر ايضاً ان (عبد المطلب) كان فيمن وفد على (سيف بن ذي يزَن) ليهنئه بطرد الحبش[1] .

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصي ، إذْ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالاً وسلطاناً . انما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم ، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت . وقد تكون صلته هذه ، هي التي جعلته يذهب الى أبرهة لمحادثته في شؤون مكة والبيت .

ويروي أهل الأخبار ان عبد المطلب كان قد نذر : لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح أحدهم . فلما تكاملوا عشرة ، همّ بذبح أحدهم ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعوه ، ثم أشاروا عليه بأن يرضي الله بنحر إبل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الإبل . فنحرها بين الصفا والمروة . وخلّى بينها وبين كل من يريد لحمها من إنسيّ أو اسبع أو طائر ، لا يذب عنها أحداً ، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً[2] . وكان نحر الإبل قبل الفيل بخمس سنين[3] . إذن فيكون ذلك حوالى سنة (٥٦٥) للميلاد .

وكان لعبد المطلب ماء بالطائف ، يقال له (ذو الهرم) وكان في أيدي ثقيف ردحاً ، ثم طلبه عبد المطلب منهم ، فأبوا عليه . وكان صاحب أمر

١ المسعودي ، مروج الذهب (٢/١٠ وما بعدها) ، (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .
٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٨ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٨ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٧٩) .

ثقيف : (جندب بن الحارث) فأبى عليه وخاصمه فيه ، فدعاهما ذلك الى المنافرة الى الكاهن (العذري) ، وكان يقـال له : (عزى سلمة) ، وكان ببلاد الشام ، وتنافرا على إبل ، وأتيا الكاهن ، فنفّر عبد المطلب عليه ، فأخذ عبد المطلب الإبل فنحرها . [1]

وقد نادم (عبد المطلب) على عادة اهل مكة جماعة من أقرانه ، لقد كانت عادتهم ان يجتمعوا مساءً فيتحادثوا او يشربوا ويأكلوا او يستمعوا الى غنـاء ، حتى يحل وقت النوم ، وكان ممن نادمهم عبد المطلب (حرب بن أميّة) ، ثم اختلف معه ، ونافره عند (نفيل بن عبد العُزّى) جد (عمر بن الخطاب) ، فنفره على (حرب) ، فافترقا . [2] وكان سبب افتراقه عنه ، إغلاظ (حرب) القول على يهوديّ كان جوار عبد المطلب . [3] وتذكر رواية اخرى ان عبد المطلب و (حرب) ، تنافرا اولاً الى النجاشي الحبشي ، ولكنه أبى ان ينفر بينهما ، فذهبا الى نفيل . وأن (حرب بن امية) غضب حين نفر عبد المطلب عليه ، وقال له : ان من انتكاس الزمان ان جعلنـاك حكماً ، وصار نديماً لعبد الله ابن جدعان . [4]

وذكر (ابن الأثير) ان سبب افتراق (عبد المطلب) عن (حرب) ، كان بسبب جار عبد المطلب اليهودي ، واسمه (أُذَيْنَة) ، وكان تاجراً وله مال كثير ، فغاظ ذلك (حرب بن امية) ، فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله . فقتله (عامر بن عبد مناف) و (صخر بن عمرو بن كعب التَيْمي) ، فلم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، واذا هما قد استجارا بحرب بن امية ، فأتى حرباً ولامه وطلبهما منه ، فأخفاهما ، فتغالظا في القول حتى تنافرا الى النجاشي ملك الحبشة ، فلم يدخل بينهما ، وذهبـا الى نفيل . وترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله بن جدعان ، وأخذ من

١ ابن سعد، طبقات (١/٥١ وما بعدها)، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (١/٨٨)، ابن سعد، طبقات (١/٨٨) ، (دار صادر) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٥١) وما بعدها) ، (١/٨٧) ، (صادر) .
٣ السيرة الحلبية (١/٢٥) ، البلاذري ، أنساب (١/٧٤) .
٤ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٧) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٧) (صادر) .

حرب مئة ناقة ، فدفعها الى ابن عم اليهوديّ ، وارتجع ماله ، الا شيئاً هلك ، فغرمه من ماله . [1]

وقد صاهر عبد المطلب ، رجال من أسر معروفة بمكة ، فصاهره (كُريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، وكانت عنده (أم حكيم) ، وهي (البيضاء بنت عبد المطلب) . وصاهره (ابو أُميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (عاتكة بنت عبد المطلب) ، و (عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (برة بنت عبد المطلب) . وناسبه (ابو رُهم بن عبد العزى بن ابي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر بن لؤي) ، خلف على (برة) بعد عبد الأسد . وصاهره (جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة) ، وكانت عنده (اميمة بنت عبد المطلب) ، و (العوّام ابن خويلد بن اسد بن عبد العُزّى) ، خلف على (صفية بعد عمير بن وهب) . [2]

ويذكر ان (عبد المطلب) ، كان يفرش له في ظل الكعبة ، ويجلس بنوه حول فراشه الى خروجه ، فاذا خرج ، قاموا على رأسه مع عبيده ، اجلالاً له . [3] وكانت عادة سادة مكة تمضية اوقاتهم في مسجد الكعبة ، حيث يجلسون في ظل الكعبة او في فنائها يتحدثون ويتسامرون ، ثم يذهبون الى بيوتهم .

وفي ايام عبد المطلب كانت حملة (أبرهة) على مكة . وقد ارخت قريش بوقوعها ، وصيّرت الحملة مبدءاً لتأريخ ، لأهميتها بالنسبة لمكة . وقد تركت اثراً كبيراً في نفوس قريش ، بدليل تذكيرَ القرآن لهم بما حلّ بـ (اصحاب الفيل) ، [4] على نحو ما تحدثت عنه في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد رأينا ان (عبد المطلب) وقد اشار على قومه بالتحرز بشعاب الجبال ،

---

١ الكامل (٨/٢ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ٦٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، (٢٧/٨ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، أنساب (٨١/١) .
٤ الفيل ، رقم ١٠٥ ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢٩٩/٣٠) ، تفسير ابن كثير (٥٤٩/٤) ، الأزرقي (٨٥/١) ، مروج الذهب (٧١/٢) ، الكامل ، لابن الأثير (٢٦٠/١) ، البداية (١٧٠/٢ ، ١٤٥) ، الملل والنحل (٢٧٩/٣) .

وبترك البيت وشأنه لأن للبيت ربّاً يحميه ، وبعدم التحرش بالحبش وتركهم وشأنهم . والظاهر انه وجد ان عدد الاحباش كان كبيراً وان من غير الممكن مقاومتهم والذبّ عن مكة في الوادي . ثم انها حرم آمن ، لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يُتَحصَّن بها ، لهذا رأى الرحيل عن الوادي والاحتماء برؤوس الجبال ، والاشراف منها على الدروب والطرق ، فذلك انفع واحمى للمال وللنفس . ثم ان من الممكن مباغتة الحبش منها ومهاجمتهم وانزال خسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، على حين تكون القوة والمنعة في ايدي الأحباش لو حصروا انفسهم بمكة ، اذ يكونون في منخفض بينما العدّو على شُرف يشرف عليهم ، وليس في امكانهم مقاومته ، وليس لهم حصون ولا مواضع دفاع . فتكون الغلبة لأبرهة حتماً ، وقد نجحت فكرة عبد المطلب ، ولم يُصب اهل مكة بسوء .

وقد كان من عادة اهل مكة ، انهم اذا داهمهم الخطر توقّلوا الجبال واعتصموا بها ، ولما حاصرهم الرسول عـام الفتح ، هرب اكثرهم واعتصموا برؤوس الجبال ، اذ ليس في امكانهم الحرب والصمود في البطحاء . [1]

ومات (عبد المطلب) بعد ان جاوز الثمانين . مات في ملك (هرمز بن أنو شروان) ، وعلى الحيرة قابوس بن المنذر ، أخو (عمرو بن المنذر) على رواية ، وعمر الرسول ثمان سنين . ومعنى ذلك انه توفي في حوالي السنة (٥٧٨) للميلاد . ولما حمل على سريره ، جزّت نساء (بني عبد مناف) شعورهن ، وشق بعض الاولاد قمصانهم حزناً على وفاته . ودفن بالحجون . [2] وذكر انه لم يقم بمكة سوق اياماً كثيرة لوفاة عبد المطلب . [3]

وذكر ان عبد المطلب كان اول من تحنث بحراء ، وكان اذا أهلّ هلال شهر رمضان ، دخل بحراء فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين . وكان يعظّم الظلم بمكة ويكثر الطواف بالبيت . [4]

ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وأبو طالب ، واسمه

١ البلاذري ، أنساب (١/٣٥٥) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٨٤ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٨٧) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٨٤) .

عبد مناف . والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة ، وبرّة وأميمة [1] وعدة ولده اثنا عشر رجلاً وست نسوة . [2]

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الأثرياء ، وكل ما كان عندهم ثراء روحي ، استمدوه من اسم (قصيّ) وهاشم . فكانوا من وجهاء مكة من هذه الناحية . اما من ناحية المادة والمال ، فلم يكونوا من السبّاقين فيه . لقد كانوا وسطا ، وربما كانوا دون اوساط تجار مكة . مات (عبد الله) ، ولم يخلف لأهله شيئاً ، ومات ابو طالب ، وحالته المالية ليست على ما يرام . لقد كانوا تجاراً يخرجون بتجارتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام ، او الى اليمن فيبيعون ويشترون ، ولكنهم على ما يبدو من الاخبار لم يتمكنوا من جمع ثروة تغنيهم وتجعلهم من اغنياء مكة . وقد تُوُفيّ (عبد الله) وهو في طريقه من (غزة) الى مكة ، وكان قد اقبل بتجارة له ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، وتوفي هناك . [3] وأن (عبد المطلب) بعث اليه (الزبير بن عبد المطلب) اخاه ، ودفن في دار النابغة . [4] وأنه ترك عند وفاته (أم أيمن) ، حاضنة الرسول ، وكان يُسمّيها : (أمّي) ، فأعتقها وخمسة اجمال أوارك ، وقطعة غنم ، وسيفاً مأثوراً ، وورقا . [5]

وخرج (ابو طالب) بتجارة له في (عير قريش) ولكنه لم يتمكن من كسب شيء يريحه ويسعده من كل تجاراته . وآية ذلك ان الرسول اخذ منه ابنه (عليّاً) ، ليخفف عنه مشقة الانفاق على ولده ، وأخذ (العباس) (جعفراً) منه لينفق عليه . ووضعٌ مثل هذا لا يدل على يسر . [6] وكانت له مع فقره هذا وجاهة عند اهله وقومه . قيل : (لم يَسُد من قريش مِمق الا عتبة وأبو طالب ، فانهما سادا بغير مال) . [7] وقال (عليّ) في والده : (ابي ساد فقيراً وما

---

١ الطبري (٢/٢٣٩) (دار المعارف) ،
٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٩) .
٣ الطبري (٢/٢٤٦) (دار المعارف) ، البلاذري ، أنساب (١/٩٢) ، ويقال كان عبد المطلب بعثه الى المدينة يمار له تمرا . ويقال : بل أتاهم زائرا لهم ، ويقال بل قدم من غزة بتجارة له .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٩٢) ، ابن سعد ، طبقات (١/٩٩) .
٥ البلاذري ، أنساب (١/٩٦) .
٦ ابن الأثير ، الكامل (٢/٣٧) (المنيرية) الطبري (٢/٢١٣) (الحسينية)
٧ السهيلي الروض الأنف (١/١٢١) .

ساد فقير غيره)[1] . وذكر ان عياله كانوا في ضيقة وخدة . لا يكادون يشبعون لقلة ما عندهم[2] .

وعتبة بن ربيعة ، هو أبو هند زوج (أبي سفيان) ، وهي أم معاوية . ويذكر أهل الأخبار أيضاً : (ساد عتبة بن أبي ربيعة وأبو طالب ، وكانا أفلس من أبي المزلق . وهو رجل من بني عبد شمس ، لم يكن يجد مؤنة ليلته ، وكذا أبوه وجدّه وجدّ جدّه كلهم يعرفون بالافلاس)[3] .

ويظهر ان (عبد شمس) و (نوفل) و (مخزوم) ، كانوا قد تمكنوا من منافسة (عبد المطلب) و (آل هاشم) على التجارة ، ومن انتزاع تجارة بلاد الشأم منهم ، ومن مزاحمتهم في الاتجار مع اليمن والعراق ، حتى حصلوا على ثراء طائل ، صيّرهم من أغنى رجال مكة ، وجعل لهم التفوق على البلد ، حتى صار رجال من (بني مخزوم) من أغنى رجال مكة. وكذلك رجال من (عبد شمس).

وتعدّ (أيام الفجار) من الحوادث المؤثرة في تأريخ مكة . وهي أفجرة . وانما سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ومن أهمها (فجار البراض) ، نسبت الى (البراض بن قيس) الذي قتل (عروة الرحّال) (عروة بن عتبة الرحال) ، الى جانب (فدك) بأرض يقال لهـا (أوارة) ، فأهاج مقتله الحرب بين (قريش) ومن معها من (كنانة) وبين (قيس عيلان) ، وكانت الدبرة على (قيس)[4] . وذكر في رواية أخرى ، ان الفجارات الأربعة : فجار الرجل ، أو فجار بدر بن معشر الغفاري ، وهو الفجار الأول ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض[5] . وان يوم (البراض) أو يوم نخلة، هو أعظم أيّام الفجار ، وكان البراض قد قدم باللطيمة الى مكة، فأكلها، وهي لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التي وضع (النعمان) زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحال) ، وكان سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك . فكان ذلك ممـا أهاج

١ اليعقوبي (٢/٩) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٩٦) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٥٣) .
٤ ناج العروس (٣/٤٦٥) ، (فجر) ، عن حروب الفجار ، العمدة (٢/٢١٨ وما بعدها) .
٥ المسعودي ، مروج (٢/٢٧١) ، ناج العروس (٣/٤٦٥) .

الحرب . وقد رأس قريش : حرب بن أمية ، وكان موضعه في القلب ، وعبد الله ابن جدعان في إحدى المجنبتين ، وهشام بن المغيرة في الأخرى ، فالتقوا بـ (نخلة) ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل . فكان اليوم لهوازن[1] .

وذكر ان هذا اليوم قد وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل . وقد شهده الرسول وعمره عشرون سنة .

ثم إن قريشاً وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة . وعلى بني هاشم : الزبير بن عبد المطلب ، وعلى بني عبد شمس وأحلافها : حرب بن أمية ، وعلى بني عبد الدار وحلفائها : عكرمة بن هاشم ، وعلى بني أسد بن عبد العزى : خويلد بن أسد ، وعلى بني زهرة : مخرمة بن نوفل ، وعلى بني تيم : عبد الله بن جدعان ، وعلى بني مخزوم : هاشم بن المغيرة ، وعلى بني سهم : العاص بن وائل ، وعلى بني جمح : أمية بن خلف ، وعلى بني عديّ : زيد بن عمرو بن نفيل ، وعلى بني عامر بن لؤي : عمرو بن شمس ، وعلى بني فهر : عبد الله بن الجرّاح ، وعلى بني بكر : بلعاء بن قيس ، وعلى الأحابيش : الحليس الكناني ، فالتقوا أول النهار على هوازن ، فصبروا . ثم استحر القتل في قريش ، وانهزم الناس[2] .

وروي ان (البراض بن قيس) لقي (بشر بن أبي خازم) الأسدي الشاعر ، فأخبره الخبر ، وأمر ان يعلم ذلك (عبد الله بن جدعان) و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (نوفل بن معاوية الديلي) و (بلعاء ابن قيس) ، فوافى (عكاظا) ، فأخبرهم فخرجوا الى الحرم ، وبلغ (قيساً) الخبر ، فخرجوا في آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، ولم تقم في تلك السنة (عكاظ) . ومكثت (قريش) وغيرها من (كنانة) و (أسد) بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش ، وهم الحارث بن عبد مناة وعضل والقارة وديش والمصطلق من خزاعة لحلفهم بالحارث بن عبد مناة ، سنة يتأهبون للحرب ، لانذار (قيس) لها . وتأهبت (قيس عيلان) وسارت على (قريش) ، وكان فيها (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) ، و (سُبيع بن ربيعة بن معاوية

---

١ البلاذري ، أنساب (١/٤٣ ، ١٠١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/١٥٢) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/١٠٢ وما بعدها) .

النصري) و (دريد بن الصمة) ، و (مسعود بن معتب الثقفي) و (أبو عروة بن مسعود) و (عوف بن أبي حارثة المرّي) و (عباس بن رعل السُلمي) . واستعدت (قريش) ورؤساؤها (عبد الله بن جدعان) ، و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (أبو أحيحة سعيد بن العاص) ، و (عتبة بن ربيعة) ، و (العاص بن وائل) ، و (معمر بن حبيب الجمحي) ، و (عكرمة بن هاشم) ، وخرجوا متساندين . ويقال بل أمرُهم الى عبد الله بن جدعان . فالتقوا فكانت الدبرة أول النهار لقيس على قريش وكنانة ومن ضوى اليهم ، ثم صارت الدبرة آخر النهر لقريش وكنانة على قيس ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً . فاصطلحوا على ان عَدّوا القتلى ، وودت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم ، وانتهت الحرب . وقد شهد الرسول هذه الفجار ، ورمى فيها بسهم ، فكان يوم حضر ابن عشرين سنة ، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة [1] .

وأغلب حروب الفجار معارك ومناوشات ، ولم تكن حروباً بالمعنى المفهوم من كلمة (حرب) . اما أهميتها وسبب اشتهارها فلوقوعها في شهور حرم ولخروج المتحاربين فيها على سنة قريش ودينهم في تحريم القتال في هذه الشهور . ولهذا السبب حفظ ذكرها وجاء خبرها في كتب أهل الأخبار . وقد كان النصر فيها على كنانة وقريش في الغالب . وهو شيء مفهوم معقول . فقد كانت (قيس عيلان) كما كانت (هوازن) قبائل محاربة تعيش على الغزو والقتال ، بينما كانت (قريش) قبيلة مستقرة اتخذت التجارة لها رزقاً ، كما عاشت على الأرباح التي تجنيها من مجيء الأعراب اليها في مواسم الحج أو أيام العمرة ومن الامتيار من أسواقها . وقوم هذا شأنهم في حياتهم وفي تعاملهم لا يمكن ان يميلوا الى الغزو والقتال ، بل كانوا يحبون حياة السلم والاستقرار ، يشترون السلم ولو عن طريق ترضية الأعراب بتقديم الأموال لهم والهدايا والهبات . لذلك لم يصر رجالها رجال حروب وقتال ، بل صاروا رجال سياسة ومساومة ومفاوضات تنتهي بنتائج طيبة بالنسبة لهم ، لا يمكن ان يحصلوا عليها من القتال .

وقد رأس (الزبير بن عبد المطلب) بني هاشم ، غير ان رئاسته هذه

---

١ ابن سعد ، طبقات (١٢٨/١) ، السيرة الحلبية (١٥٢/١) .

لم تكن متينة وقد كان في جملة من شهد (حلف الفضول) في دار (عبد الله ابن جدعان) [1] . كما رأس (بني هاشم) في حرب الفجار [2] . وذكر انه كان نديماً لمالك بن عُميلة بن السباق بن عبد الدار [3] . وقد تاجر الزبير مع بلاد الشأم إلا انه لم ينجح في تجارته على ما ظهر ، بدليل انه لم يكن موسراً . وذكر انه كان أحد حُكام العرب الذين يتحاكمون اليهم [4] .

وحلف الفضول من الأحداث المهمة التي يذكرها أهل السير والأخبار في تأريخ مكة . وإذا صحّ ما يذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفي السنة التي وقع فيها الفجار الذي حضره الرسول ، ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سنة ، فيجب ان يكون عقد هذا الحلف قد تم في حوالي السنة (٥٩٠) للميلاد [5] . ويذكر ان الذي دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب [6] .

وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم وذكر انهم تعاهدوا على ان يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ، وفي التآسي في المعاش . وقد عقد منصرف قريش من الفجار وكان الفجار في شوّال وعقد الحلف في ذي العقدة [7] . وذكر ايضاً انهم (تحالفوا ألا يُظلم أحد بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلامته) . وقد ذكره الشاعر (نبيه بن الحجّاج السهمي) [8] . وليس لأهل الأخبار رأي ثابت عن سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول . فذكر بعضهم انه سُمّي بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه . وقيل : سُمّي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن . وسُمّي حلف الفضول ، لانه قام بـه رجال

١ المحبر (ص ١٦٧) .
٢ المحبر (ص ١٦٩) .
٣ المحبر (ص ١٧٦) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٨٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨ وما بعدها) .
٦ السيرة الحلبية (١/١٥٣ وما بعدها) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨ وما بعدها) .
٨ نسب قريش ، (٢٩١) ، الأغاني (١٦/٦٤) .

من جرهم كلهـــم يسمى الفضل ، فقيل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء[1] . وذكر انه سُمّي حلف الفضول ، لأن قريشاً قالت : هذا فضول من الحلف ، فسمي حلف الفضول[2] . وقيل لأن قريشاً تعاقدوا فيما بينهم على (مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم)[3] . وهو في بعض الروايات تحالُف ثلاثـــة من الفضلين على ألا يروا ظلماً بمكة إلا غيّروه . وأسماؤهم : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعـــة ، والفضل بن نصاعة . فسُمّي من ثم باسمهـــم : حلف الفضول[4] .

وذكر أكثر أهل الأخبار ، ان الغاية التي أريد بها منه ، هي إنصاف المظلومين من أهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عوناً ليحميه ويدافع عن حقوقه ، وإنصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجـــار ، ممن يعتدي عليهم فيأخذ أموالهم أخذاً ويأكلها ولا يدفع لأصحابها عنها شيئاً . فذكر ان رجلاً من (زبيد) من اليمن ، وكان باع سلعة له (العاصَ بن وائل السهمي) ، فمطله الثمن حتى يئس ، فعـــلا جبل (أبي قيس) ، وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعاً صوته يشكو ظلامته ، ويطلب انصافه مستجيراً بقريش ، فشت قريش بعضهـــا الى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك (الزبـــير بن عبد المطلب) ، واجتمعت في (دار الندوة) ، وكان ممن اجتمع بهـــا من (قريش) (بنو هـــاشم) و (بنو المطلب) و (زهـــرة) و (تـــيم) و (بنو الحارث) ، فاتفقوا على انهم ينصفون المظلوم من الظـــالم ، فساروا الى دار عبد الله بن جدعان ، فتحالفوا هنالك[5] .

وذكر ان رجلاً من (بني أسد بن خزيمة) جاء بتجارة فاشتراها رجل من (بني سهم) ، فأخذها السهمي وأبى ان يعطيه الثمن ، فكلّم قريشاً وسألهـــا اعانته على أخذ حقه ، فلم يأخذ له أحد بحقه ، فصعد الأسدي (أبا قبيس) ،

١ تاج العروس (٦٣/٨) .
٢ اليعقوبي (١٤/٢) ، (طبعة النجف) .
٣ Kister, p. 124.
٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٤) .
٥ مروج الذهب (٢٧٠/٢ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١٥٦/١ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤٠) .

وصرخ بشعر يشكو فيه ظلامته ، فتداعت قريش ، وعقدت حلف الفضول .

وقيل لم يكن من (بني أسد) ، ولكنه (قيس بن شيبة السُلمي) ، باع متاعاً من (أبي خلف الجمحي) وذهب بحقه ، فاستجار بـ (آل قصي) ، فأجاروه ، فكان ذلك سبب عقد حلف الفضول[1] . وقيل : بل كان الرجل من (بارق) ، فلما يئس من أخذ حقه من (أبي) ، صعد في الجبل ورفع عقيرته بقوله :

يا للرجال لمظلومٍ بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ان الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فلما سمعه (الزبير بن عبد المطلب) ، أجابه :

حلفتُ لنعقدن حِلْفاً عليهم وإن كُنّا جميعاً أهل دارِ
نُسمّيه الفضول إذا عقدنا يقربه الغريب لذي الجوار

ثم قام وعبد الله بن جدعان ، فدعوا قريشاً الى التحالف والتناصر والأخذ للمظلوم من الظالم ، فأجابوهما ، وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان ، فهذا حلف الفضول[2] .

وذكر ان رجلاً من (خثعم) قدم مكة ومعه بنت وضيئة ، فاغتصبها منه (نبيه بن الحجاج) ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى : يا لحلف الفضول ، فاجتمعوا حوله ، واستردوا الجارية من نبيه . وقالوا له : (ويحك . فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه) فأعادها اليه[3] .

ويظهر من هذا الخبر ان حلف الفضول كان قد عقد قبل هذه الحادثة ، وان جماعته كانت شديدة متراصة في دفع الحق الى أهله واسترجاعه ممن اغتصبه كائناً ما كان .

ويظهر ان هذا الحلف استمر قائماً الى وقت ما في الإسلام ، ثم فقد

---

١ اليعقوبي (٢/١٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤١) ، السهيلي ، الروض الأنف (١/٩١) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٥٧) .

قيمته ، فمات . فورد انه كان بين (الحسين بن عليّ بن أبي طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) منازعة في مال متعلق بالحسين ، فماطله الوليد . (فقال الحسين للوليد : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه)[1] .

وقد تفسر دعوة (الحسين) المذكورة ، بأن الحسين ، لم يقصد بقوله (لأدعون لحلف الفضول) ، الحلف القديم المعروف ، وانما قصد لأدعون لحلف كحلف الفضول ، وهو نصرة المظلوم على ظالمه . وقد أيده على حقه جماعة ، منهم عبد الله بن الزبير ، مما دفع الوليد على ارجاع حق الحسين ، خشية وقوع فتنة وتدخل في هذه الخصومة[2] . ومعنى هذا أننا لا نستطيع ان نستنتج من الخبر المتقدم ، ان حلف الفضول كان قد بقي الى ذلك العهد .

ويرجع حلف الفضول الى أحلاف سابقة على ما يتبين من أخبار أهل الأخبار . الى عهد (هاشم) والى ما قبل أيام هاشم . والظاهر ان أهل مكة ، بعد ان اجتمعوا وتكتلوا في وادٍ ضيق وفي أرض فقيرة ، وجدوا ان من العسير عليهم رؤية حفنة منهم وقد استأثرت بالمال والغنى ، بينما عاش الكثير بينهم في فقر وفاقة . وانهم ان أصموا آذانهم عن سماع نداء الإغاثة ، فإن حالة من الذعر ، ستسود مدينتهم . لذلك تواصوا فيما بينهم على مواساة أهل الفاقة وجبْر خاطر المحتاج ، وعلى تراحمهم فيما بينهم وتواصلهم . وكان مما فعلوه لرفع مستوى الفقير ، وللقضاء على الفوارق الكبيرة التي صارت فيما بين سادات مكة وسوادها ، ان حثوا كل مكيّ على المساهمة في أموال القوافل ، حتى اذا ما عادت رابحة ، وُزّعت أرباحها على هؤلاء ايضاً ، كلٌ حسب مقدار ما ساهم به من مال في القافلة . وبذلك خفف أهل مكة من حدة التضاد الذي كان بين النقيضين . وأمنوا من تطاول الشباب الفقراء على الأغنياء . بأن فتح بعض الأغنياء أبواب بيوتهم

١ السيرة الحلبية (١/١٥٧) .
٢ السيرة الحلبية (١/١٥٧) .

للجياع ، فآووهم وساعدوهم على نحو ما جاء في شعر لمطرود بن كعب الخزاعي إذ يقول :

هبلتك أمك لو حللت بدارهم ضمنوك من جوع ومن اقراف [1]

وقوله :

والخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يصير فقيرهم كالكافي [2]

والعطف على الفقراء ومواساة الضعفاء وذوي الحاجة من خلال الأشراف السادات . لانهم إن لم يغيثوا الغائث ويرحموا المسكين فمن يرحمهم إذن على وجه هذه الأرض ! وقد مدح من يخلط الفقير بالغني فيساوي بينهما ، وذم من يبيت شبعاناً وجاره يبيت خامصاً لا شيء عنده يعتمد عليه [3] .

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في أيام الرسول ، يوم كان في الخامسة والثلاثين ، بناء الكعبة . بسبب سيل ملأ ما بين الجبلين ، ودخل الكعبة حتى تصدعت ، أو بسبب حريق أصاب أستار الكعبة ، فتصدعت ، فعزمت قريش على بنائها ، فهدمتها وأعادت بناءها . وذكر ان قريشاً كانت قد أفردت ببناء كل ربع من أرباع البيت قوماً ، وكان ذلك بقرعة بينهم . فلما انتهوا الى موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يضعه وتشاحّوا عليه ، فرضوا بأول من يدخل من الباب . فكان أول من دخل رسول الله ، فوضعه بيده ، بعد ان قال : ليأت من كل ربع من قريش رجل ، وبذلك فض النزاع [4] . ويجب ان يكون حادث بناء البيت إذن في حوالي السنة (٦٠٥) للميلاد .

---

١ اليعقوبي (٢١٤/١) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .

٢ (فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون ففيرهم بغنيهم حتى يصير ففيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله) ، نفسبر القرطبي ، (٢٠٥/٢٠) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٥٤٦/١٠) ، (طبعة طهران) ، البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن العربي ، محاضرات الأبرار (١٩/٢) .

٣ القالي ، الأمالي (١٥٨/٢) . Kister, P. 123.

٤ البلاذري ، أنساب (٩٩/١) ، ابن رسته ، الاعلاق النفيسة (وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يومئذ قد ناهز الحلم) ، (ص ٢٩) .

وجهاء مكة :

وكان امر مكة الى وجهاء امرها ، مثل (بنو مخزوم) ، و (بنو عبد شمس) ، و (بنو زهرة) و (بنو سهم) و (بنو المطلب) و (بنو هاشم) و (بنو نوفل) و (بنو عديّ) و (بنو كنانة) و (بنو اسد) و (بنو تَيْم) و (بنو جمح) و (بنو عبد الدار) و (بنو عامر بن لؤيّ) و (بنو محارب بن فهر) وذكر بعض اهل الاخبار ، ان الشرف والرياسة في قريش في الجاهلية في (بني قصيّ) ، لا ينازعونهم ولا يفخر عليهم فاخر . فلم يزالوا ينقاد لهم ويرأسون . وكانت لقريش ست مآثر كلها لبني قصيّ دون سائر قريش . منها الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والرياسة . فلما هلك (حرب بن امية) ، وكان حرب رئيساً بعد المطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في (بني عبد مناف) . فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب وحمزة ، والعباس بن عبد المطلب . وفي بني امية : ابو احيحة ، وهو سعيد بن العاص بن امية ، وهو (ذو العمامة) ، كان لا يعمّ احد بمكة بلون عمامته اعظاماً له . وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . و (عبد يزيد) هو (المحض لا قذى فيه) وفي (بني نوفل) : المطعم بن عديّ بن نوفل . وفي بني اسد بن عبد العُزى : خويلد ابن اسد ، وعثمان بن الحويرث بن اسد . وقد كانت النبوة والخلافة لبني عبد مناف ، ويشركهم في الشورى : زهرة وتيم وعدي وأسد . [1]

وقد اختص (بنو كنانة) بالنسيء . فكان نسأة الشهور منهم . وهم (القلامسة) . وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم . [2] فمكانتهم اذن بين الناس هي مكانة روحية ، فبيدهم الفقه والافتاء .

ومكة وان كانت مجتمعاً حضرياً ، اهله اهل مدر في الغالب ، غير انهـا لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لأن الحياة فيها كانت مبنية على اساس العصبية القبليـة . المدينة مقسمة الى شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة ، تحكمها الاسر ، وبين الاسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ .

١ المحبر (ص ١٦٤ وما بعدها ، ١٦٩) .
٢ المحبر (ص ١٥٦) .

نزاع وان لم يقلق الأمن ويعبث بسلام المدينة ، الا انه اثر في حياتها الاجتماعية اثراً خطيراً ، انتقلت عدواه الى ايام الاسلام .

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة ، واعلان نفسه ملكاً عليها يحلي رأسه بالتاج شأن الملوك المتوّجين ، ولكنه لم يفلح ولم ينجح . حتى ذكر ان بعضهم التجأ الى الغرباء ، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري في تنصيب انفسهم ملوكاً عليها ، فلم ينجحوا ، كالذي ذكروه عن (عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى) ، المعروف بـ (البطريق) ، من انه طمع في ملك مكة ، فلما عجز عن ذلك ، خرج الى قيصر ، فسأله ان يملّكه على قريش ، وقال : احملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل ، وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش (قيصر) وهمّوا ان يدينوا له ، ثم قام الاسود بن المطلب ، ابو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : ان قريشاً لقاح ! لا تملك ولا تملك ، وصاح الاسود بن اسد بن عبد العزى : الا ان مكة حي لقاح ، لا تدين لملك . فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، ولم يتم له مراده ، فمات عند ابن جفنة . فاتهمت بنو اسد ابن جفنة بقتله . [1] وابن جفنة هو عمرو بن جفنه الغساني . [2]

ولم يكن عثمان بن الحويرث اول زعيم جاهلي فُتن بالملك وبلقب ملك،الحبيب الى النفوس ، حتى حمله ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة كانت ، ولو عن سبيل التودد الى الأقوياء الغرباء والتوسل اليهم ، لمساعدتهم في تنصيبهم ملوكاً على قومهم . ففي كتب اهل الاخبار والتواريخ اسماء نفر كانوا على شاكلته ، فتنهم الملك وأعماهم الطمع وحملهم ضعف الشخصية وفقر النفس حتى على التوسل الى الساسانيين والروم ، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب ، ووضع التاج على رأسهم ، في مقابل وضع انفسهم وقومهم في خدمة السادة المساعدين اصحاب المنة والفضل .

لقد اسمات عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك مكة ، حتى ذكر

١ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١/١٤٦) .
٢ جمهرة ابن حزم (١٩٠) ، الروض الأنف (١/١٤٦) ، نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) .

انه تنصر وتقرب بذلك الى الروم ، وحسنت منزلته عندهم . ومن يدري ؟ فلعلّه كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول الى اليمن والسيطرة على العربية الغربية والعربية الجنوبية . واخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم . ولقد جمع القوم ورغّبهم وانذرهم وحذرهم بغضب الروم عليهم ان عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم . قائلاً لهم : (يا قوم ، ان قيصر قد علمتم امانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه . وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم ، وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجُراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ، ثم اذهب اليه . وأنا اخاف ان ابيتم ذلك ان يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه) .[1]

واذ صحّ ان هذا الكلام هو كلام (عثمان بن الحويرث) حقاً ، وانه خاطب به قومه لحثهم على الاعتراف به ملكاً على مكة ، فانه يكون كلام رجل عرف من اين يكلم قومه ، وكيف يأتيهم ! فقد هددهم بأن الروم سيمنعونهم من الاتجار مع الشام ان خالفوه ولم يبايعوه ولم يسلّموا له بالملك ، وقد كلفه (قيصر) به . لأنه يعلم ان تجارة قريش مع بلاد الشام هي مصدر من اهم مصادر رزقهم . ولهذا ظن بأنهم سيخضعون له ويقبلون بما جاء به . ولكن أشراف مكة من اصحاب المال والنفوذ ، لم يحملوا هذا التهديد محمل الجد ، فالروم لا يهمهم امر (عثمان) كثيراً ، ثم ان تهديدهم بقطع تجارة قريش مع الشام ، تهديد لا يمكن تحقيقه ، وحدود الشام طويلة ومفتوحة ، ولعلّهم وجدوا ان كلام (عثمان) هو ادعاء لم يصدر عن الروم ، تفوه به ، من حيث لا يعلمون . فلم يقيموا له وزناً .

ولم يذكر اهل الاخبار شيئاً عن لقب (البطريق) الذي منحوه لـ (عثمان ابن الحويرث) .[2] ولا اظن ان الروم قد منحوه له ، لأنهم لم يكونوا يمنحون هذا اللقب المهم الا لكبار العاملين في خدمتهم ، ممن ادى لهم خدمات جليلة ، ولا اظن انه يشير الى درجة دينية ، لأنه لم يشتهر بين النصارى شهرة كبيرة ولم ينل من العلم والمكانة ما يؤهله لأن يكون (بطريارخاً) على الكنيسة . وقد ذكر

---

١ الروض الأنف (١/١٤٦) .

٢ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١/١٤٦) .

علماء اللغة ان (البطرق) ، القائد ، معرب ، وهو الحاذق بالحرب وأمورها ، وهو ذو منصب عند الروم[1] . فلا يعقل ان يكون (عثمان) ، قد نال هذه المنزلة عند البيزنطيين . وهي منزلة لم ينلها إلا بعض ملوك الغساسنة مع صلتهم القوية بهم .

ومما يذكره أهل الأخبار عن (عثمان) هذا ، انه كان في رؤساء حرب الفجار من قريش . وانه كان من (بني أسد بن عبد العزّى) ، وانه كان أحد الهجائين[2] .

ومن وجهاء مكة وساداتها المقدمين المعروفين : عبد الله بن جدعان ، وكان ثريّاً واسع الثراء ، كما كان كريماً ، أسرف في أواخر عمره في إكرام الناس وبالغ في اعطائهم حتى حجر رهطه عليه لما أسن ، فكان اذا أعطى أحداً شيئاً ، رجعوا على المعطى فأخذوه منه . فكان اذا سأل سائل ، قال : (كن مني قريباً اذا جلست ، فإني سألطمك ، فلا ترضَ إلا بأن تلطمني بلطمتك ، أو تفتدي لطمتك بفداء رغيب ترضاه)[3] . والى هذا الحادث أشار ابن قيس الرقيّات :

والذي إن أشار نحوك لطماً تبع اللطم نائل وعطاء[4]

وينسبه النسّابون الى (بني تيم بن مُرّة) ، ويقولون في نسبه إنه (عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة) . وهو ابن عم والد الخليفة (أبي بكر)[5] ، ويذكرون (انه كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب

١ اللسان (٩/١٠) ، (بطرق) .
٢ الاشتقاق (٥٩) ، نسب قريش (٢١٠) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠) .
٣ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش ، (٢٥٦) ، عيون الأخبار ، لابن قتيبة (٣٣٥/١) ، تاريخ الخميس (٢٥٦/١) ، سمط النجوم (٢٠١/١ وما بعدها).
٤ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش (٢٩٣) ، وهو من (بني تيم) ، وقد أخطأ المستشرق (ليفي بروفنسال) او من اشرف نيابة عنه على طبع كتاب (نسب قريش) ، فصير (بنو تيم) (بنو تميم) ، راجع (ص ٢٩٢ س ١٠) ، و (ص ٢٩٣ س ١) . والخطأ خطأ مطبعي ولا شك ، ولأهميته أشرت اليه .
٥ ابن خلدون ، القسم الأول ، المجلد الثاني (ص ٦٧٤) (بيروت) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢١٧/٢) (مطبعة السعادة) ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب (١٣٦) .

اليدين ، وكان مع ذلك شريراً فاتكاً ، لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ان لا يؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة حائراً مائراً يتمنى الموت ان ينزل به ، فرأى شقاً في جبل ، فظن ان فيه حيّة ، فتعرض للشق يرجو ان يكون فيه ما يقتله فيستريح ، فلم يجد شيئاً ، فدخل فيه) ، فإذا به أمام غار هو مقبرة من مقابر ملوك (جرهم) ، وفيه كنوز وأموال من أموالهم ثمينة من بينها (ثعبان) مصنوع من ذهب ، له

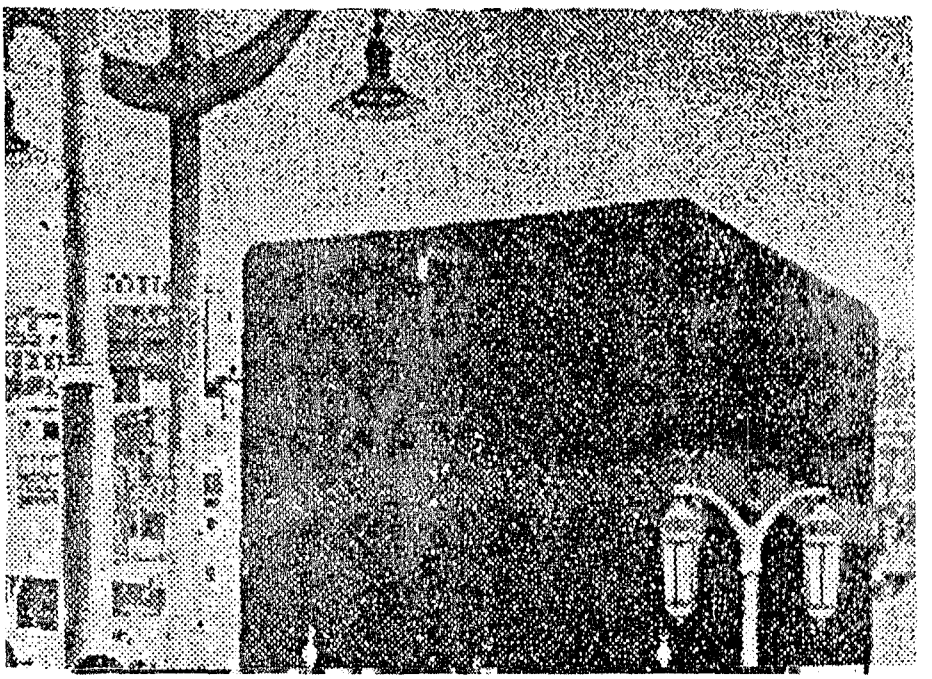

الكعبة الشريفة

عينان من ياقوت . ووجد جثث الملوك على أسرّة ، لم يرَ مثلها ، وعليها ثياب من وشي ، لا يُمَسُ منها شيء إلا انتثر كالهباء من طول الزمان ، فأخذ من الغار حاجته ثم خرج ، وعلّم الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة ، وأرسل الى أبيه بالمال الذي خرج بـه منه يسترضيه ويستعطفه ، ووصل عشيرتـه كلهم ، فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكنز ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف . وكان

كلما احتاج الى مال دهب . فاستخرج ما يحتاج اليه من ذلك الكنز حتى صار من أغنى أغنياء مكة [1] .

فثراء (عبد الله بن جدعان) هو من هذا الكنز على زعم رواة هذه القصة التي يتصل سندها بـ (عبد الملك بن هشام) راوية (كتاب التيجان) ، وهو كتاب مليء بالأقاصيص والأساطير . وقد تكون القصة صحيحة . فعثور الناس على كنوز ودفائن من الأمور المألوفة ، وقد عثر غيره ممن جاؤوا قبله أو جاؤوا بعده على كنوز ، بل ما زال الناس حتى اليوم يعثرون عليها مصادفة أو في أثناء الحفر والتنقيب . والشيء الغريب فيها هو هذا التزويق والتنميق ، وهو أيضاً شيء مألوف بالنسبة الينا ، وغير غريب وقد تعودنا قراءته ، فمن عادة القصاصين ورواة الأساطير والأباطيل الإغراب في كلامهم والكذب فيه لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، وعلى رأس هذه الطائفة (وهب بن منبه) ، صاحب (كتاب التيجان) .

وذكر انه لثرائه كان لا يشرب ولا يأكل إلا بآنية من الذهب والفضة ، فعرف لذلك بـ (حاسي الذهب) [2] .

ويذكر أهل الأخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان نخاساً ، له جوار يساعين ، ويبيع أولادهن . فكانت جواريه تؤجر للرجال ، وما ينتج عن هذا السفاح من نسل ، يربى ، فيبقي منه عبد الله ما يشاء ويبيع منه ما يشاء [3] . ولكنه مع اتجاره بالرقيق ، وعلى النحو المتقدم ، كان كما يقولون يعتق الرقاب ويعين على النوائب ، ويساعد الناس ويقضي الحاجات [4] ، ولا سيما بعد تقدمه في السن .

١ البدايه والنهاية ، لابن كثير (٢/٢١٧ وما بعدها) ، تاريخ الخميس (١/٢٥٥) ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المالكي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (١/١٩٩) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣٥٩) .

٢ أيام العرب (٢٤٨) .

٣ المسعودى ، مروج (٤/١٥٤) (طبعة باريس) ، الثعالبي ، لطائف المعارف (١٢٨) (الأبياري) ، المعارف ، لابن قتيبة (٥٧٦) .

٤ البداية ، لابن كثير (٢/٢٢٩) .

ولا يستبعد ان يكون ما ذكره أهل الأخبار عن (عبد الله بن جدعان) ، هو من صنع حساده ومبغضيه ، ممن حسدوه على ما بلغ اليه بمكة من مركز وجاه . ومثل هذا التشنيع على الناس شائع مألوف . لا سيما وقد كان في الأصل فقيراً غير موسر ، فغني بجده واجتهاده فتقوّل عليه حساده من أهل زمانه تلك الأقوال .

وقد عرف (ابن جدعان) بإكرام الناس وبالإنفاق على أهل مدينته وروى أهل الأخبار أمثلة عديدة على جوده وسخائه . من ذلك ما رووه من انه كان قد وضع جفنة كبيرة ملأها طعاماً ليأكل منها الناس ، وكانت الجفنة على درجة كبيرة من السعة بحيث غرق فيها صبي كان قد سقط فيها . وذكروا ان الرسول قال : لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكّة عُمَيّ ، أي وقت الظهيرة [1] . ووصفوا الجفنة فقالوا إنها (كانت لابن جدعان في الجاهلية . يطعم فيها الناس ، وكان يأكل منها القائم والراكب لعظمها) [2] . يأكل الراكب منها ، وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها [3] .

وذكروا انه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن ، حتى سمع قول أُمية بن أبي الصلت :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بني الديّان
البر يُلبّكُ بالشهاد طعامهم ... لا ما يُعللنا بتو جُدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه الى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج بالعسل ، فكان أول من أدخله بمكة . وجعل منادياً ينادي كل ليلة بمكة على ظهر الكعبة ان هلموا الى جفنة ابن جدعان . فقال أمية بن أبي الصلت :

لـه داعٍ بمكـة مشمعـل ... وآخر فوق كعبتهـا ينادي [4]
الى ردحٍ من الشيزى ملاءٍ ... لُباب البر يلبك بالشهـاد [5]

---

١ ابن كثير ، البداية (٢/٢١٧) ، اللسان (١٠/٤٥٧) ، عيون الاخبار (٣/٢٦٨) (كتاب الطعام) .
٢ ابن كثير ، البداية (٢/٢١٧) ، سمط النجوم (١/١٩٩) ، اللسان (١٠/٤٥٧).
٣ ابن كثير (٢/٢٢٩) .
٤ وفي رواية أخرى (فوق داربه) بدلا من (فوق كعبتها) ، وهناك اختلافات أخرى في رواية هذه الابيات وغيرها .
٥ البداية (٢/٢١٧) ، ذيل الامالي والنوادر ، للقالي (٣٨) ، الاغاني (٨/٣٢٩) .

ويذكر اهل الاخبار ان (امية) كان قد أتى (بني الديان) فدخل على (عبد المدان بن الديان) من بني الحارث بن كعب بنجران ، فاذا به على سريره ، وكأن وجهه قمر ، وبنوه حوله ، فدعا بالطعام ، فأتي بالفالوذج ، فأكل طعاماً عجيباً ، ثم انصرف فقال في ذلك الشعر المذكور ، فلما بلغ شعره (ابن جدعان) ، ارسل ألفي بعير الى الشام تحمل اليه البر والشهد والسمن ، وجعل له منـاديين يناديان : احدهما بأسفل مكة والآخر بأعلاها ، وكان احدهما سفيان بن عبد الاسود ، والآخر أبا قحافة ، وكان احدهما ينادي ؛ ألا من اراد اللحم والشحم ، فليأت دار ابن جدعان ، وينادي الآخر : ان من اراد الفالوذج فليأتِ الى دار ابن جدعان . وهو اول من اطعم الفالوذج بمكة . [1]

وذكر (الجاحظ) ان من اشرف ما عرفه اهل مكة من الطعام ، هو (الفالوذ) ولم يطعم الناس منهم ذلك الطعام ، الا عبد الله بن جدعان . [2]

ولبعض اهل الاخبـار رواية اخرى في كيفية وقوف (ابن جدعان) على الفالوذ (الفالوذج) وادخاله الى مكة ، وترجع هذه الرواية مصدره الى الفرس ، فيقول : وفد (ابن جدعان) على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وما الفالوذ ؟ قالوا : لُباب البُرّ يُلْبَكُ مع عسل النحل . فأعجبه ، فابتاع غلاماً يعرف صنعه ، ثم قدم به مكة معه ، ثم امره فصنع له الفالوذ بمكة ، فوضع الموائد بالأبطح الى باب المسجد ، ثم نادى مناديه : ألا من اراد الفالوذ فليحضر ، فحضر الناس . فكان فيمن حضر أُميّة ابن أبـي الصّلْت . [3]

وذكر انه كان يضع (الحَيْس) على انطاع على الارض ليأكل منها القاعد والراكب . والحَيْس : الأَقِطُ يخلط بالتمر والسمن . وقد يجعل عوض الأَقِطِ الدقيقُ والفَتيت . وقيـل ، الحَيْس : التمر والأَقِطُ يُدقّان ويعجنان بالسمن عجنـاً شديداً حتى يندر النوى منه نواةً نواةً ، ثم يسوّى كالثريد . وهو الوَطْبة ايضاً ، الا ان الحَيْس ربما جُعل فيه السويق ، واما الوطبة فلا . [4]

١ سمط النجوم (١/١٩٩) ، ذيل الامالي والنوادر (٣٨) .
٢ البخلاء (٢١٠) (طه الحاجري) .
٣ الاغاني (٨/٣٢٩) .
٤ الجاحظ ، الحيوان (٣/٤٠٣) ، لسان العرب (٦/٦١) .

ويروي اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا يفدون على مائدة (ابن جدعان) ، وأن رسول الله كان فيمن حضر طعامه . [1]

وروي ان الرسول لما امر بأن يستطلع خبر القتلى من قريش يوم بدر ، وأن تلتمس جثة (ابي جهل) في القتلى ، قال لهم : (انظروا ان خفي عليكم في القتلى ، الى اثر جرح في ركبته ، فإني ازدحمت يوماً انا وهو على مأدبة لعبد الله ابن جـــدعان ، ونحن غلامان ، وكنت اشف منه ببسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه) ، فخدشت ساقه وانهشمت ركبته ، فأثرها باقٍ في ركبته). فوجدوه كذلك . [2]

ويذكر اهل الاخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان قد مثل قومه (بني تيم) في الوقت الذي ارسلته قريش الى (سيف بن ذي يَزَن) ، واسمه (النعمان بن قيس) ، لتهنئته بظفره بالحبشة ، واخراجهم من وطنه . وكان هذا الوفد في وفود من العرب جاءته لتهنئته ، وفيها شعراء وأشراف وسادات قبائل . وقد كان في وفد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد ، ووهب بن عبد مناف . وقد قدمت تلك الوفود الى صنعاء ، ودخلت قصره : قصر غُمدان . [3]

ويروى ان عبد الله بن جدعان كان عقيماً ، لم يولد له ولد . [4] فتبنى رجلاً سمّاه (زهيراً) ، وكنّاه (ابا مليكة) ، فولده كلهم ينسبون الى (ابي مليكة) . وفقد (ابو مليكة) فلم يرجع . [5]

وكانت له بئر بمكة تسمى (الثريا) . وقد ذكر ان (بني تَيْم) حفروها . [6]

١ اللسان (١٠/٤٥٧) ، أيام العرب (٣٢٩) ، (٢/٢١٧) .

٢ ابن هشام (٢/٢٨٨) ، سمط النجوم (٢/٢٠٢) ، البداية ، لابـــن كثـــير

٣ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، (١/٣٦١) ، العقد الفريد (٢/٢٣) (لجنـــة التأليف) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٣٢٨) .

٤ المحبر (ص ٩٧) ، (ومن ولده : عبدالله بن عبيدالله بن عبدالله بن أبي مليكـة ابن عبدالله بن جدعان ... وعلي بن عبدالله بن أبي مليكة بن عبدالله بن جدعان)، نسب قريش (٢٩٣) .

٥ المعارف (ص ٤٧٥) ، المحبر (ص ٣٠٧) .

٦ الحموي ، المشترك (٨٧) ، البلدان (٢/٧٧) ، الأزرقي ، أخبار مكـــة (٤٤٠) (لايبزك) .

وذكر ان دار عبد الله بن جدعان كانت في (ربع بني تيم) ، وكانت شارعة على الوادي .[1] وكانت داراً فخمة ، وبقيت مشهورة معروفة بمكة حتى بعد وفاته .

وبهذه الدار عقد (حلف الفضول) ، وذلك لشرفه ومكانته بين اهل مكة اذ ذاك . ولثرائه الضخم دخل كبير في ذلك ، ولا شك . وقد صنع للمدعوين طعاماً كثيراً قدمه اليهم ، ثم عقد الحلف . وكان الرسول ممن شهده ، وهو ابن عشرين او خمس وعشرين . وكان يتذكره ويقول : (لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحبّ ان لي به حمر النعم . ولو دعي به في الاسلام لأجبت) .[2] او (اما لو دعيت في الاسلام لأجبت ، وأحبّ ان لي به حمر النعم . واني نَقَضتُه وما يزيده الاسلام الا شدة) .[3]

وقد تكون حلف الفضول من هاشم ، و (المطلب) ، و (أسد) ، و (زهرة) ، و (تيم) ، وربما من (بني الحارث بن فهر) ايضاً . وهم الذين كونوا حلف المطيبين . ولذلك ذهب بعض الباحثين الى ان حلف الفضول ، هو استمرار للحلف المذكور ، اذ تألف من الأسر التي كانت ألفت ذلك الحلف ما خلا (بني عبد شمس) و (بني نوفل) . وكان قد وقع نزاع بين (نوفل) و (عبد المطلب ابن هاشم) ، فعلّه كان السبب في عدم انضمام (نوفل) الى هذا الحلف . وقد تعاون (نوفل) و (عبد شمس) ، ووجدا في استطاعتها التعاون بينهما من غير حاجة الى الدخول في حلف الفضول . ولهذا لم يكن حلف الفضول ، في نظر هؤلاء ، غير حلف من احلاف الأسر ، ولم يكن على رأيهم لنصرة الضعيف وانصاف المظلوم ، على نحو ما جاء في روايات اهل الاخبار .[4]

---

١ أخبار مكة (ص ٤٦٨) (لايبزك) .

٢ المقدسي ، البدء والتاريخ (٤/١٣٧) ، تأريخ الخميس (١/٢٦١) ، النويري ، نهاية الارب (٦/٢٦٧) ، البخلاء (٢/١٢) ، ابن أبي الحديد ، شر) نهج البلاغة (١٥/٢٠٣) ، طبقات ابن سعد (١/١٢٦ ، ١٢٨) ، مروج (٤/١٢٢ ومـــا بعدها) (باريس) .

٣ النوبري ، نهاية الارب (٦/٢٦٧) ، سمط النجوم العوالي ، (١/١٩٠) ، ابن هشام (١/١٩٠) ، البداية (٢/٢٩١ وما بعدها) ، ابن خلدون (القسم الاول ، المجلد الثاني ص ٧٠٦ وما بعدها) ابن الاثير ، الكامل (ذكر حلف الفضـــول) ، اللسان (١١/٥٢٧) .

٤ Annali, I, 164, Watt, Muhammad at Mecca. p 6,

وروي انه لمكانة (عبد الله) التي بلغها عند قومه وعند العرب ، كانت العرب اذا قدمت عكاظ دفعت اسلحتها اليه حتى يفرغوا من اسواقهم وحجهم ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا .

وكان يحافظ على الأمانات محافظة شديدة . فلما جاءه (حرب بن امية) ، صديقه ، وهو من وجهاء مكة وأثريائها كذلك ، قائلاً له : احتبس قبلَكَ سلاحَ هَوازن وذلك يوم نخلة من ايام الفجار الثاني ، اجابه ابن جدعان : أبالغدر تأمرني ، يا حرب ؟ والله لو اعلم انه لم يبقَ منها سيف الا ضُربت به ، ولا رمح الا طعنت به ، ما امسكت منها شيئاً . ثم أبى الا تسليم السلاح اليهم .[1]

وقد اسهم (ابن جدعان) في ايام الفجار ، وكان على (بني تيم) .[2] وأمدَّ قومه بالسلاح والمال ، فأعطى مئة رجل سلاحاً تاماً كاملاً ، وذلك (يوم شمطة) غير ما ألبس من بني قومه والأحابيش .[3] وحمل مئة رجل على مئة بعير ، وقيل : ألف رجل على ألف بعير ، وذلك (يوم شرب) .[4] او يوم عكاظ .[5] وله أخ اسمه (كلدة بن جدعان) قتل في الفجار .[6]

وكان (ابن جدعان) يشرب الخمر على عادة الجاهليين في شربها ، بقي يشربها حتى كبر ، فعافها . ودخل فيمن عاف الخمر على كِبَره من سادات قريش وأشرافها . وكان من عادتهم اذا كبروا ولعب بهم العمر ، حرموا شرب الخمر على انفسهم . (ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية الا ترك الخمر استحياءً مما فيها من الدنس . ولقد عابها ابن جدعان قبل موته) .[7]

ويروون في سبب تركه لها قصتين : قصة تقول انه عافها لأنه سكر مرة

١ أيام العرب (٣٢٩) .
٢ ابن الاثير ، الكامل (١/٣٥٩ وما بعدها) ، تاريخ الخميس (١/٢٥٥) ، البدء والتاريخ (٤/١٣٤ وما بعدها) .
٣ ابن الاثير ، الكامل (١/٣٦١) ، الصحاح (٢/٧٧٨) ، نهاية الارب (١٥/٤٢٧ وما بعدها) أيام العرب (٣٣١) .
٤ سمط النجوم (١/١٩٦) ، نهاية الارب (١٥/٤٢٩) .
٥ أيام العرب (٣٣٤) .
٦ نسب قريش (٢٩١) .
٧ الاغاني (٨/٣٣٢) ، نسب قريش ، (٢٩٢ وما بعدها) .

ففقد رشده فاعتدى على أمية بأن لطم عينه ، فندم على ما فعل حين سمع بالخبر ، وقال : (وَبَلَغَ مني الشراب ما أبلغ معه من جليس هذا المبلغ ؟ فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، ألا لا أذوقها ابداً) ثم قال شعراً في ذم الخمر وفي وصف حاله اذ ذاك . [1]

ومن الرقيق الذي كان في ملك (ابن جدعان) واكتسب شهرة في الاسلام (صهيب الرومي) . بيع في سوق النخاسة ، ثم وضع في شراء (ابن جدعان) ، وبقي في ملكه الى ان هلك سيده ، ويقال انه اعتقـــه وهو في حياته وأنه لازمه حتى مماته . [2]

وقد كان (ابن جدعان) يلتزم من يستجير به ، ويحمي من يأوي اليه . وكان (الحارث بن ظالم) قاتل (خالد بن جعفر بن كلاب) ، وهو في جوار ملك الحيرة في جملة من لجأ الى (ابن جدعان) حين طلبه ملك الحيرة ، وبقي في جواره وبمكة حتى أتاه ملك الحيرة . ويقال ان (الحارث بن ظالم) قدم على عبد الله بن جدعان بعكاظ ، وهم يريدون حرب قيس . فلذلك نكس رمحه ، ثم رفعه حين عرفوه وأمن . وكانوا اذا خافوا فوردوا على من يستجيرون به ، او جاءوا لصلح ، نكسوا رماحهم . ويوم عكاظ من ايام الفجار . [3]

ورجل ثري وجيه له مكانة ومنزلة عند بني قومه ، لا بد ان يصير مرجعاً للناس ، يرجعون اليه في المنازعات والخصومات ، ليحكم بينهم بما لديه من رجاحة عقل وسلطان ، لذلك كان في جملة حكام العرب ، الذين تحوكم اليهم . [4]

ولأمية بن ابي الصلت شعر في مدح (عبد الله بن جدعان) ، نجـــده في ديوان أمية وفي كتب الأدب . وقد كان من المقربين عنـــد (أبي زهير) . [5] ومن المكرمين له بسخاء . وكان يعطيه دائماً ، ونجد لأمية شعراً يطلب فيه من

١ نهاية الارب (٤/٨٨) .
٢ المعارف (٢٦٤) ، انساب الاشراف (١/١٨٠) .
٣ انساب الاشراف (١/٤٢ وما بعدها) .
٤ البخلاء (ص ٢١٤) .
٥ الجاحظ البيان والتبيين (١/١٧) الاغاني (٨/٣٢٧ وما بعدها)

(ابن جدعان) اعطاه مالاً . [1]

وكان هلاك (ابن جدعان) قبل سنوات من المبعث . [2] وذكر (البلاذري) ان هلاكه كان (قبـــل المبعث ببضع عشرة سنة . [3] ولما مات دفن بمكة . [4] وذكر في رواية اخرى انه دفن بموضع (برك الغماد) ، وراء مكة بخمس ليال بينها وبين اليمن مما يلي البحر او بين حلى وذهبان .

وفيه يقول الشاعر :

سقى الامطار قبر ابـي زهير الى سقف الى برك الغماد [5]

ومن رجال مكة الأغنياء (الاسود بن المطلب) المعروف بـ (أبـي زمعة) . و (زمعة) ابنه ، قتل يوم (بدر) في جملة من قُتل من رجال قريش . وكان يقال له : (زاد الركب) [6] . وقد عرف ولده الأسود بـ (زاد الركب) كذلك [7] . وكان الأسود ممن ادرك ايام الرسول وعارضه ، وعَدّه (ابن حبيب) في جملة المستهزئين من قريش بالرسول ، وممن مات كافراً ، بعد ان اصابه العمر [8] .

وكان (الأسود) ندمـــاً للأسود بن عبد يغوث الزهري . وكانا من اعز قريش في الجاهلية ، وكانا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين سيفين . وكانا من المستهزئين بالرسول [9] . وذكر ان (الأسود بن عبد يغوث) كان اذا رأى المسلمين ، قال لأصحابه : (قد جاءكم ملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر . ويقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم : اما كلمت اليوم من السماء ، يا محمد ؟

---

١ أأطلب حاجتي ؟ أم قد كفاني حياؤك ؟ ان شيمتك الحياء
ابن عساكر ، التأريخ الكبير (٣/١٢٢) .

٢ الاصابة (٢/٢٧٩) ، البداية (٢/٢١٨) ، تأريخ الخميس (١/٢٥٦) ، سمط النجوم (١/٢٠٢) .

٣ أنساب الاشراف (١/١٨٠) .

٤ المعارف (ص ١٧٥) .

٥ تاج العروس (٧/١٠٧) ، (بـرك) .

٦ الاشتقاق (ص ٥٨) ، نسب قريش (٢١٨ وما بعدها) .

٧ المحبر (ص ١٣٧) .

٨ المحبر (ص ١٥٩) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤٩ وما بعدها) .

٩ المحبر (١٧٤) .

وما اشبه هذا القول). مات حين هاجر النبي ، ودفن بالحجون . [1]

وكان (زمعة بن الأسود) ، تاجراً ، متجره الى الشام . وعرف بالدقة في العمل وفي وضع خطط سفره وتجارته . (فكان اذا خرج من عند ابيه في سفر ، قال : أسير كذا وكذا ، وآتي البلد يـــوم كذا وكذا ، ثم اخرج يوم كذا وكذا ، فلا يخرم مما يقول شيئاً) . [2]

ومن سادات قريش : (يزيد بن زمعه بن الاسود) . وكانت اليه المشورة . وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على امر حتى يعرضوه عليـــه ، فان وافقه ، ولاّهم عليه ، والا تخير ، وكانوا له اعواناً . وقد اسلم ، واستشهد مع الرسول بالطائف . [3]

ويعد حرب بن امية من وجهاء مكة وسيداً من سادات كنانة . وكان امر كنانة كلها اليه يوم شمطة . [4] واشترك يوم عكاظ ، وقيد نفسه ومعه سفيان وأبو سفيان بن امية بن عبد شمس ، وذلك كي يثبتوا في اماكنهم ، ويتقوى بذلك قومهم فيثبتوا في القتال . [5] وكان من اثرياء مكة المعروفين .

ومن سادات مكة : (هشام بن المغيرة ، بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكان له ولبنيـــه صيت بمكة وذكر عالٍ . [6] وذكر انه كان سيد قريش في دهره . ولما مات صار يوم موته من ايام مكة المشهورة ، حتى انهم أرّخوا بموته . [7] ونادى منادي مكة في امثال هذه المناسبات : (اشهدوا جنازة ربكم) . وكان سيداً مطعـــاماً . [8] وظل يوم وفاة (هشام) يوماً يؤرخ به سبع سنين الى ان

١ البلاذري ، انساب (١٣١/١ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ١٥٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢٤٩/١) .
٤ أيام العرب (٣٣١) .
٥ أيام العرب (٣٣٤) .
٦ الاشتقاق (٦٠)
٧ واصبح بطن مكة مقشعرا كان الارض لبس بها هشام
الاشتقاق (٩٢) ، نسب قريش (٣٠١) .
٨ الاشتقاق (٦٣) ، المحبر (١٣٩) ، المعارف (٣٢) .

كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة ، فأرخوا بها .[1] وهو من الرجال الذين نعتوا بين قومهم بـ (زاد الركب) ، لأنه كان يقري المسافرين الذين يسافرون معه .[2]

ومن ابناء (هشام بن المغيرة) المذكور (ابو جهل) و (الحارث بن هشام) . اما (الحارث بن هشام) ، فقد عرف بالكرم والجود . ذكر ان داره كانت مفتوحة للضيوف . يدخلون واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . وهو جالس على سرير يحث الناس على الأكل . ويروى ان (اباذر) قدم مكة معتمراً ، فقال : (اما من مضيف ؟) قالوا : (بلى كثير وأقربهم منزلاً الحارث بن هشام) . فأتى بابه ، فقال : (اما من قرى ؟) . فقالت له جارية : (بلى) . فأخرجت اليه زبيبا في يدها . فقال : (ولِمَ لَمْ تجعليه في طبق ؟) فعلم انه ضيف . وقالت : (ادخل) فدخل . فاذا بالحارث على كرسي وبين يديه جفان فيها خبز ولحم وأنطاع عليها زبيب . فقال : (أصب) . فأكل ثم قال : (هذا لك) . فأقام ثلاثاً ثم رجع الى المدينة ، فأخبر النبي خبره . فقال : (انه لسري ابن سري . وددت انه أسلم) .[3] وكان نديماً لحكيم بن حزام بن خويلد ابن اسد .[4]

وأما (أبو الحكم : عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ابن مُرّة) . فكان من رجال (بني مخزوم) المعدودين ، ومن المعادين للإسلام ، بل كان على رأس أشد الناس عداوة للرسول . وقد كنّاه الرسول بـ (أبي جهل) لأنه كان يكنى قبل ذلك بـ (أبي الحكم) فاشتهر بهذه الكنية ، حتى لم يعد يعرف إلا بها في الإسلام[5] . وكان من المقتسمين . وهم سبعة عشر رجلاً من قريش ، اقتسموا عقاب مكة . فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله . وفيهم نزلت : (كما أنزلنا على المقتسمين)[6] .

---

١ المحبر (١٣٩) ، الاغاني (١١/١٥) .
٢ الاشتقاق (٩٢) .
٣ المحبر (ص ١٣٩ وما بعدها) نسب قريش (٣٠١) .
٤ المحبر (ص ١٧٦) .
٥ المحبر (ص ١٣٩) ، البلاذري ، أنساب (١٢٥/١) .
٦ المحبر (١٦٠) .

وكان من المطعمين لحرب يوم بدر . نحر عشراً[1] . وكان نديماً للحكم بن أبي العاص بن أمية . و (الحكم) هذا هو الطريد[2] .

وأخبر (ابن الكلبي) ، ان اخوين من (بني سليم) ، دخلا مكة معتمرين فما وجدا بها شراءً ولا قرى . فبينا هما كذلك إذ رأيا قوماً يمضون ، فسألا (أين هؤلاء القوم ؟) فقيل لهما : يريدان الطعام . فمضيا في جملتهم حتى أتوا داراً فولجوها . فإذا رجل آدم ، أحول ، على سرير وعليه حلة سوداء واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . فقعدوا فأكلوا . فشبع أحد الأخوين وقال لأخيه : (كم تأكل ؟ أما شبعت ؟) . فقال الجالس على السرير : (كل فإنما جعل الطعام ليؤكل) . فلما فرغوا خرجوا من باب الدار غير الذي دخلوا منه . فإذا هم بإبل موقوفة . فقالوا : (ما هذه الإبل ؟) قيل : للطعام الذي رأيتم . وكان الرجل الجالس على السرير : صاحب الطعام . فإذا به أبو جهل بن هشام[3] .

ويظهر انه كان قاسياً قسا حتى على النساء ، فعذب عدداً منهن بنفسه عذاباً أليماً . عذب (زنيرة) ، وكانت لبني مخزوم حتى عميت ، وعذب غيرها حتى هلكت ، وممن هلكن (سمية) أم عمار بن ياسر[4] . وكان يأتي من يسلم ، فيكلمه ليفتنه عن دينه : يأتي الرجل الشريف ، ويقول له : أتترك دينك ودين أبيك ، وهو خير منك ؟ ويقبح رأيه وفعله ، ويسفه حلمه . وان كان تاجراً يقول له : ستكسد تجارتك ، ويهلك مالك . وان كان ضعيفاً ، أوصى بمن يعذبه ، حتى يترك دينه . جاء مرة دار أبي بكر ، فلما لم يجده لطم خدّ أسماء ابنته لطمة طرح قرطها . وكان فاحشاً بذيئاً[5] .

ويذكر أهل الأخبار انه كان لا يبالي في أكل حقوق الغرباء القادمين الى

١ المحبر (١٦١) .
٢ المحبر (ص ١٧٦) .
٣ (فاذا هو أبو جهل بن هشام) ، هكذا في نهاية الخبر . بينما الخبر يخص (الحارث ابن هشام ، كما جاء في أوله ، راجع المحبة (ص ١٣٩) ، ويظهر أن مراده من الخبر الثاني الخاص بالاخوين : (أبا جهل) ، لانه كان أحولا كما هو بهذا الخبر ، وقد كان أبو جهل من الحولان الاشراف ، المحبر (ص ٣٠٣) .
٤ ابن الاثير ، الكامل (٢/٤٧ وما بعدها) .
٥ ابن الاثير ، الكامل (٢/٤٧ وما بعدها) .

مكة ، فماطل مرة في أثمان إبل اشتراها من رجل من (أراش) ، وماطل مرة أخرى في إبل أخذها من رجل من (زبيد) ، ولم يدفع أثمانها ولم يعوض عنها إلا بالتجاء الرجلين الى النبيّ ، فأخـــذ حقها منه ، وانتصف منه . ويظهر ان (أبا جهل) وان كان قاسياً بغيضاً للرسول مؤذياً له ، غير انه كان يخشاه اذا رآه ووقف أمامه ، وأما ايذاؤه له ، فكان بانتهاز غفلة يعتدي فيها على الرسول ، أو بتحريض غيره للتحرش به[1] .

وعرف (عمرو بن عبد الله بن صفوان بن أمية) بالجود . وذكر انه كان معرقاً به . كان جوادا ابن جواد ابن جواد ابن جواد[2] .

وكان الوليـــد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، من أشراف مكة وسادتها . وقد عرف بين قومه بـ (العدل) . وذكر انه إنمـــا عرف بذلك ، لأنه كان يعدل قريش كلها ، فكانت قريش تكسو الكعبة جميعها ، ويكسوها الوليد وحده ، وذلك لثرائه وغناه . قيل انه كان له مال وزع بالطائف ، وكان يملك حديقة بها غرس فيها الأشجار والفواكه[3] . وقد كان لذلك متعالياً متغطرساً ، فلما أظهر الرسول الإسلام ، كان مثل بقية سراة مكة وأغنيائها من المعادين له ، لأنه أنف ان يتبع رجلاً هو دونه في المال والاسم والثراء . فكافـــح الإسلام ، واستهزأ بالرسول وبالإسلام ، وكان أحد (المستهزئين) الذين نزلت بحقهم آيات تعنفهم وتوبخهم وتصفهم بالكفر وبالغرور والاستكبار ، وانـــه كان يرى ان من الذلة الخضوع للرسول لأنه دونه مالاً ونفراً[4] .

وقد كان (الوليد) الحُكّام الذين تحوكم اليهم ، واليه تحاكم بنو عبد مناف في موضوع قتل (خداش) إنساناً منهم[5] . وقـــد عرف بـ (ابن صخرة) نسبة الى أمه[6] . وذكر انه كان في جملة من حرّم في الجاهلية الخمر على نفسه

---

١ البلاذري ، أنساب (١/١٣٠) .
٢ المحبر (ص ١٤٠ وما بعدها) .
٣ Ency., IV, P. 111.
٤ تفسير الطبري (٥/٣٦) ، ابن هشام (١/٧٢ وما بعدها) .
٥ المحبر (ص ٣٣٧) .
٦ المحبر (ص ٣٣٧) .

وضرب فيها ابنه هشاماً على شربها[1] . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة زنادقة قريش ، وذكر انه وجماعته تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة[2] ، ولم يفسر قصده من الزندقة .

ويذكرون ان (الوليد) كان أسنّ قريش يوم حكم في قضية (خداش) ، وحكم فيها بـ (القَسامة) ، فكان بذلك أول من سنّ (القسامة) في قريش[3] .

ومات الوليد بعد الهجرة بثلاثة أشهر أو نحوها ، ودفن بالحجون[4] . وذكر (محمد بن حبيب) ان (أبا أحيحة) كان نديماً للوليد بن المغيرة . على عادة القوم في اتخاذ الندماء[5] .

وأبو (أحيحة) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، المعروف بـ (ذي العمامة) ، لأنه كان لا يعمّ أحد بمكه بلون عمامته إعظاماً له[6] . كما عرف بـ (ذي التاج) وذلك للسبب نفسه[7] . وقد ذكره (أبو قيس بن الأسلت) في شعر ينسب اليه[8] . وكان مثل أكثر رجال قريش تاجراً . قدم مرة الشأم في تجارة ، فحبسه (عمرو بن جَفْنة) ، حبسه مع هشام بن سعد العامري ، وبقي في محبسه حتى جاء بنو عبد شمس ، فافتدوه بمال كثير[9] .

وكان أبو أحيحة ممن أخذتهم العزة من أشراف مكة ، فلم يقبلوا الدخول في الإسلام . وممن أظهر عداوته للرسول ، خاصة بعد تحريض النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة له على معاداته . وقد كان مثل سائر أشراف مكة يرى ان الأمر العظيم يجب ان يكون في العظماء . وهو من العصبة التي أشير اليها في هذه

---

١ المحبر (٢٣٧) .
٢ المحبر (١٦١) .
٣ المحبر (ص ٣٣٧) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/١٣٤) .
٥ المحبر (١٧٤) ، البلاذري ، أنساب (١/١٣٤) .
٦ المحبر (ص ١٦٥) ، الاشتقاق (ص ٤٩) .
٧ الطبري (٢/٣٩٨) ، المحبر (١٦٥) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤١) .
٨ البيان والتبيين (٣/٩٧) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤١) .
٩ البيان والتبيين (٣/٩٧) ، الاصابة (٣٨٥٩) .

الآية : (وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظم ، أهـم يقسمون رحمة ربك ؟) [1] .

وقد مات أبو أحيحة بماله في الطائف في السنة الأولى ، أو في السنة الثانيـة من الهجرة . مات كافراً ، وقد بني له قبر مشرف . وقد رأى أبو بكر قبره ، فسبه ، فسبّ ابناه أبا قحافة ، فنهى النبي عن سبّ الأموات ، لمـا يثير ذلك من عداوة بين الأحياء ، ولما فيه من إهانة للأموات [2] .

وقد ساهم (أبو أحيحة) بثلاثين ألف دينار في رأس مال القافلة التي تولى قيادتها أبو سفيان . ومبلغ مثل هذا ليس بشيء قليل بالنسبة الى الوضع المالي في تلك الأيام .

ومن سادة قريش : الأسود بن عامر بن السبّاق بن عبد الدار بن قصي [3] .

ومن رجال بني فهر : ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كبير بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب . وكان فارس قريش في الجاهلية ، وأدرك الإسلام . وكان شاعراً فارسياً ، وقد أخذ مرباع بني فهر في الجاهلية [4] .

ومن رجال بني عامـر بن لؤي : عمرو بن عبد ودّ بن أبي قيس . كان فارس قريش في الجاهلية ، بل فارس كِنانة . قتله علي بن أبي طالب [5] . ومن (بني عبد ودّ) ، سهيل بن عمرو ، وكان من رجال قريش في الجاهلية ، ثم أسلم ، وهو الذي بعثته قريش بحكم الهدنة بينهم وبين النبي يوم الحديبية [6] .

ومن سادات قريش : قيس بن عديّ بن سعد بن سهم . وقد ضرب بـه المثل في العز ، حتى قيل : (كأنه في العزّ قيس بن عديّ) . وكان يأتي الحمار وبيده مقرعة ، فيعرض عليه خمره ، فإن كانت جيدة ، وإلا قال له : (أجد

١ الزخرف ، الرقم ٤٣ الآية ٣١ وما بعدها ، البلاذري ، أنساب (١٤١/١) .
٢ الطبري (/٣٩٨) ، أنساب الاشراف (١٤٢/١) .
٣ الاشتقاق (ص ١٠٠) .
٤ الاشتقاق (ص ٦٤) .
٥ الاشتقاق (ص ٦٨) .
٦ الاشتقاق (ص ٦٩) .

خمرك ، ثم يقرع رأسه وينصرف)[1] . وذكر انه كانت له قينتان يجتمع اليهما فتيان قريش : أبو لهب وأشباهه ، وهو الذي أمرهم بسرقة الغزال من الكعبة ، ففعلوا ، فقسمه على قيانه ، وكان غزالاً من ذهب مدفوناً ، فقطعت قريش رجالاً ممن سرقه ، وأرادوا قطع يد أبي لهب ، فحمته أخواله من خزاعة[2] . وذكر ان (مقيس بن عبد قيس بن قيس بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم) ، هو صاحب قصة الغزال[3] .

وكان (الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم) ، أحد المستهزئين المؤذين لرسول الله ، وهو (ابن الغيطلة) . وهو الذي نزلت فيه : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . وكان يأخذ حجراً ، فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن . وكان دَهْرياً يقول : (لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه ان وعدهم ان يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث)[4] .

وممن اشتهر من بني عبد شمس : (عتبة بن ربيعة بن عبد شمس)[5] ، وكان نديماً لمطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف[6] .

اما أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن مناف ، ويكنى أيضاً بأبي حنظلة ، فكان مثل سائر رجال مكة تاجراً صاحب أسفار ، ثرياً ، جمع مالاً من تجارته . وكان صاحب (عير قريش) ، فهو المؤتمن عليها ، وهو قائدها ، وهو رجل جد خبير بالطرق والمسالك . وقد نجح في كل أسفاره ، وأوصل تجارة مكة الى أماكنها سالمة مضمونة . فلم يتمكن المسلمون من مفاجأته وأخذه مع أموال قريش وتجارتهم العظيمة التي تحت قيادته ، حينما كان قافلاً من

---

١ المحبر (ص ١٧٨) ، جمهرة النسب (١٥٦) .
٢ فلذلك يقول بعض شعرائها :
همو منعوا الشيخ المنافيّ بعدما رأى حمة الازميل فوق البراجم
الاشتقاق (٧٦) .
٣ شرح ديوان حسان (٤٧) ، (للبرقوقي) .
٤ البلاذري ، انساب (١٣٢/١) .
٥ المحبر (ص ١٦٠) ، ابن هشام ، السيرة (٢٦٢/٢) .
٦ المحبر (ص ١٧٥) .

بلاد الشأم يريد مكة ، اذ أحسّ بالخطر ، فغير طريقه ، وسلك طريق الساحل ، وأفلت مع قافلته ورجالها ، وعدتهم سبعون ، ووصل الى مكة سالماً ، فنشبت على أثر ذلك معركة بدر [1] .

وكانت قيادة قريش في الحرب الى أبي سفيان أيضاً ، ورثها من أبيه [2] . ورجل له فضل قيادة عير قريش ، وقيادة مكة في الحرب ، لا بد ان يكون في مقدمة سادات مكة وعلى رأس طبقتها المحافظة ذات العنجهية ، التي ترى ان لها حق الرئاسة والزعامة ، والكلمة والرأي .

وليس لأحد مكانة إلا اذا كان ذا مال وجاه وحسب . وعلى الباقين طاعة السادة ، ومراعاة سنن الآباء والأجداد ، والإخلاص لعبادة الآباء والأجداد ، والدفاع عن آلهة الكعبة التي كانت السبب في اعطاء قريش منزلة خاصة عند العرب .

وكان فضلاً عن هذا وذاك رجلاً صاحب لسان ، ينظم الشعر ويجيد الهجاء ، ويحسن النزول الى أسوأ مستوى يصل اليه السوقي والحوشة من الإقذاع في الكلام وإلحاق الأذى بالناس . وقد أظهر قابلياته في ذلك في عناده ضد الإسلام وفي ايذائه الرسول وفي الحاقه الأذى بالمسلمين . وقد هيأ كل ما عنده من مواهب وكفايات وقدرات مالية لمقاومة الإسلام ولمحاربة الرسول وللقضاء على الدعوة التي جاءت مقوضة لديانة الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، ومن المحافظة على العرف ، ومن تحطيم الزعامة ، والخضوع لحكم الفقراء والرقيق . وفي القرآن الكريم آيات نزلت في حقه . وقد كان من المحرضين العاملين في معركة أحد [3] . ويذكر انه ذهب الى الشأم واتصل بـ (هرقل) وأخذ يحرضه على الرسول ، ولكن الروم لم يبالوا بتحريضه ، فعاد الى مكة [4] .

---

١ الطبري (٢/١٣١) .

٢ اخبار مكة (١/٦٦) .

٣ (البداية (٤/٩) ، (المطبعة السلفية) اليعقوبي (٢/٣٥) ، الطبري (٢/١٥٧) (الاسنقامة) الطبرسي ، مجمع (سورة آل عمران ، الآية ١٧٢) .

٤ الاغاني (٦/٣٢٩) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، تهذيب ابن عساكر (٧٣) .

ويُعدّ (عبد العُزّى بن عبد المطلب) من هذا الرعيل من وجهاء مكة الذين حاربوا الرسول ، ونصبوا له العداوة . كان موسراً ، جمع مالاً طائلاً ، كما يفهم ذلك من (سورة المسد) : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . وكان من التجار ، له تجارة مع بلاد الشأم [1] . وكاو من هؤلاء الذين أبوا التنكر لدين آبائهم وأجدادهم وإطاعة رجل فقير ، وهم أكثر منه مالاً ، وأكبر سناً . روي ان رسول الله كان بسوق ذي المجاز يقول : (أيها الناس . قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا) وإذا برجل يأتي من خلفه ويرميه بحجارة ، أدمت ساقيه وعرقوبيه ، وهو يقول للناس : انه كذاب لا تصدقوه [2] .

ويُعَدّ (أبو لهب) وهو (عبد العُزّى) ويكنى ايضاً بـ (أبي عتبة) ، من هذه الطبقة الوجيهة المعروفة من قريش . وهو عم الرسول [3] ، وكان مع ذلك من الذين حملوا حقداً شديداً عليه . وكانت زوجته تحرضه على معاداته وايذائه ، وفي حقها نزلت سورة (تبت) . وهي السورة الحادية عشرة من السور التي نزلت بمكة على رأي أكثر العلماء .

وكان بيته في جوار بيت رسول الله . فذكر ان رسول الله قال : كنت بين شرّ جارين : بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، ان كانا ليأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي . وكان النبي يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يميطه عن بابه [4] .

ويذكر أهل الأخبار ان هنالك عشرة أبطن من بطون قريش انتهت اليهن الشرف في الجاهلية ، ووصل في الإسلام ، وهم ، أمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعديّ ، وجمح ، وسهم [5] .

---

١ حاشية الشهاب (٨/٤٠٩) .
٢ الطبرسي (١٠/٥٥٩) .
٣ ابن أبي الحديد (١/٨٩) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/١٣١) .
٥ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .

كسب مكة :

ومكة كما ذكرت بلد في وادٍ غير ذي زرع ، لذلك كان عماد حياة أهلها التجارة ، والأموال التي تجبى من القوافل القادمة من الشأم الى اليمن والصاعدة من اليمن الى الشأم ، وما ينفقه الحجيج القادمون في المواسم المقدسة ، للتقرب الى الأصنام . وهناك مورد آخر درّ على أثرياء هذه المدينة المقدسة ربحاً كبيراً ، هو الربا الذي كانوا يتقاضونه من إيداع أموالهم الى المحتاجين اليها من تجار ورجال قبائل .

لقد استفادت مكة كثيراً من التدهور السياسي الذي حلّ باليمن ، ومن تقلص سلطان التبابعة ، وظهور ملوك وأمراء متنافسين ، إذْ أبعد هذا الوضع خطر الحكومات اليمانية الكبيرة عنها ، وكانت تطمع فيها وفي الحجاز ، لأن الحجاز ، قنطرة بين بلاد الشأم واليمن . ومن يستولي عليه يتصل ببلاد الشأم ، وبموانىء البحر الأبيض المهمة . وأعطى تدهور الأوضاع في العربية الجنوبية أهل مكة فرصة ثمينة عرفوا الاستفادة منها . فصاروا الواسطة في نقل التجارة من العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ، وبالعكس . وسعى تجار مكة جهد إمكانهم لاتخاذ موقف حياد تجاه الروم والفرس والحبش ، فلم يتحزبوا لأحد ، ولم يتحاملوا على طرف ، وقوّوا مركزهم بعقد أحلاف بينهم وبين سادات القبائل ، وترددوا اليهم بتقديم الألطاف والمال اليهم ، ليشتروا بذلك قلوبهم . وقد نجحوا في ذلك ، واستفادوا من هذه السياسة كثيراً .

وفي القرآن اشارة الى تجارة مكة ، والى نشاط اهلها ومتاجرتهم مع الشام ، واليمن : (لإيلاف قريشٍ ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) . [1] قال المفسرون : ان رحلة الشتاء كانت الى اليمن ، اما رحلة الصيف فكانت الى بلاد الشام . وانهم كانوا يجمعون ثروة طائلة من الرحلتين تدر على قريش خيراً كثيراً ، وتعوضهم عن فقر بلادهم .

ويظهر ان اهل هذه المدينة كانوا يسهمون جميعاً في الاتجار ، فيقدم المكّي

١ سورة قريش ، الآية الاولى .

افريقية والعربية الجنوبية ، كما اخذ ملوك الحيرة يرسلون بـ (لطائمهم) الى اليمن للبيع والشراء .

وقد اثر هذا الوضع في تجارة اهل مكة اثراً كبيراً ، اذ انتزع الفرس وملوك الحيرة من ايديهم قسطاً من ارباحهم ، وربما لا يبعد ان يكون الهجوم الذي وقع على (لطيمة) (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، بتشجيع من اهل مكة ، ذلك الهجوم الذي عرف بـ (الفجار) ، وذلك للإضرار بالفرس وبملوك الحيرة ، ولتخويف القوافل التي صارت تسلك طريق (الطائف) ، ثم منها الى مواضع في البادية الى الحيرة متجنبة طريق مكة . [1]

وكانت (الشعيبة) ميناء مكة ، اليها ترد السفن قبل جُدّة ، ثم أخذت جُدّة موضعها في ايام الخليفة عثمان بن عفّان . [2]

وقد قصدت ميناء (الشعيبة) سفن الروم وسفن الحبش ، اذ كانت السفن القادمة من افريقية ، لبيع تجارتها لأهل مكة ، ترسو في هذا الميناء .

ويظهر من كتب اهل الاخبار ان تجار مكة لم يكونوا يملكون سفناً خاصة بهم ، لنقل تجارتهم الى موانىء افريقية ، او لنقل ما يشترونه من الموانىء الافريقية لتصريفه في اسواق العراق او اسواق بلاد الشام . فنحن لا نكاد نجد في هذه الكتب شيئاً يفيد ان اهل مكة كانوا يملكون سفناً يسيرها بحارة منهم . بل نجد انهم كانوا يركبون سفناً حبشية ، عند ذهابهم الى الحبشة . وهي سفن لم تكن شيئاً بالقياس الى سفن الروم في ذلك العهد .

ولمركز مكة ونشاطها في التجارة ، توافد عليها ايضاً تجار من الخارج من بلاد الشام ومن العراق ومن بلاد الروم والفرس وغيرهم . ساكنوا المكّيين ، وتحالفوا مع أثريائهم ، ومنهم من اقام فيها في مقابل دفع جزية لحمايته ولحفظ امواله وتجارته . وكان تجار بلاد الشام خاصة يجلبون القمح والزيوت والخمور الجيدة الى تجار مكة . وقد اتخذوا مستودعات فيها لخزن بضاعتهم هذه ولتصريفها .

١ الازرقي ، أخبار مكة (١٢٨) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١) ، الاغاني (٦/٦٤) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، صبح الاعشى (١/٤٠١ وما بعدها) .

٢ البلدان (٥/٢٧٦) ، Ency., III, p. 440.

ولا يستبعد (أوليري) ان يكون من بين تجار الروم في مكة من كان عيناً للبيزنطيين على العرب ، يتجسس لهم ، ويتسقط اخبارهم ، ويكتب لهم عن صلاتهم بالفرس ، وعن انباء الفرس في جزيرة العرب واتصالهم بالقبائل ، لشدة حاجة الروم الى تلك الاخبار ، لافساد خطط الفرس وابعادهم عن بلاد العرب وعن البحار . والعالم يومئذ معسكران متخاصمان : معسكر للروم ، ومعسكر للفرس .[1]

وقوم هم اصحاب تجارة واتصال بالعالم الخارجي بحكم اتجارهم معه ، وذهابهم اليه ، لا بد ان يكون لهم اهتمام بما كان يجري ويقع في السياسة الدولية . وكان لهم علم بما يحدث بين الفرس والروم ، وبين الحبش وأهل اليمن ، لأن لما يحدث علاقة كبيرة بتجارتهم وبالاسواق التي كانوا يخرجون اليها للبيع والشراء .

ونجد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك . فلما وقعت الحرب بين الفرس والروم ، هذه الحرب التي استولى فيهـــا الفرس على القدس ، وعلى (الصليب) المقدس عند النصارى ، كان اهتمام مكة بها كبيراً وانقسم اهل مكة فريقين : مؤيد للروم ، ومؤيد للفرس ، مما يدل على وقوف اهل مكة على ما كان يقع في الخارج ، وقد اشار الى ذلك القرآن الكريم في سورة « الروم » .

وقد كان المكيّون يهتمون اهتماماً خاصاً بما كان يقع في بلاد الشام وفي اليمن من احداث ، اذ كانت تجارتهم مرتبطة بهذه البلاد بالدرجة الاولى . فما يقع فيها يؤثر تأثيراً مباشراً في تجارتهم . ولذلك حاولوا جهد امكانهم انشاء صلات حسنة مع الحاكم على بلاد الشام والحاكم على اليمن ، كما كان من مصلحة الروم مصالحة حكام العربية الغربية وترضيتهم ، ليأمنوا بذلك على سلامة تجارتهم في البحر الأحمر وعلى وصول بضائع افريقية والبلاد العربية الجنوبية والهند اليهم عند تعسف الفرس بالتجارة البرية التي كانت تأتي من الهند ومن الصين لتباع في بلاد الروم ، وعند نشوب الحرب ، وهي متوالية كثيرة ، فيما بينها ، فتنقطع التجارة عندئذ بينها ، وترتفع الاسعار . اما التجارة عن طريق العربية الغربية ، فلم تكن تصاب بأذى الحروب وبالنزاع بين الفرس والروم ، لأنها كانت بعيدة عن ساحة الحروب ، وهي في مأمن من الغارات .

١ O'leary, P. 184.

ويظهر من روايات اهل الأخبار ان سادات مكة والمواضع الاخرى من الحجاز كانوا يترددون الى الروم والى حكام اليمن ليمكّنوهم من التحكم في شؤون مواطنيهم وللسيادة عليهم . وقد روى (ابن قتيبة) ان (قُصَيّاً) استعان بـ (قيصر) في نزاعه مع خزاعة .[1] وقد تكون مساعدة قيصر له ، باشارته على الغساسنة حلفاء الروم لتقديم العون اليه . ويجوز ان يكون (بنو عذرة) وهم من العرب النصارى النازلين في اطراف بلاد الشام قد ساعدوه بطلب من الروم .[2]

ولا يستبعد ان يكون تجـار اليمن في ايام قصي وبعد موته ، كانوا يأتون بتجارتهم الى (مكة) ، ثم يقوم تجار مكة بنقلها الى بلاد الشام ، او بشرائها من تجار اليمن ، ثم يقومون هم ببيعها على حسابهم في (بُصْرى) او غزة من بلاد الشام . وقد كان يقع اختلاف في بعض الاحيان بين تجار اليمن وتجار مكة ، وقد يقع اعتداء على تجار اليمن فيصادر بعض اهـل مكة اموالهم ويغتصبونها ، كالذي حدث لتاجر من تجار اليمن ، مما حداه بالاستجارة بأشراف مكة وسادتها لإنصافه ، وأدى الحال الى عقد حلف الفضول .[3]

ولطبيعة اهـل مكة المستقرين التجار ، لزم الابتعاد عن الحروب وعن خلق المشكلات ، وحلّ كل معضلة بالمفاوضات اولاً وبالسلم . كما سعت للاتفاق مع القبائل المجاورة على محالفتها ومهادنتها . وقد افادت هذه السياسة قريشاً كثيراً ، فظهرت زعامة مكة على القبائل بعد تدهور ملك حمير في السياسة وفي الدين والاقتصاد . ولارتفاع مستوى مكة الثقافي بالنسبة الى الاعراب ، ولزعامتها الدينية على القبائل المجاورة لها ، ولاتصال سادتها بالعالم الخارجي ، ولوجود جاليات اجنبية فيهـا طورت حياتها الاقتصادية والصناعية مما جعل القبائل تعترف لها بالتفوق عليها ، وتسير في ركابها ، وتتبع تقويمها ، وتحضر في مواسمها ، حتى صارت مكة عند ظهور الاسلام القـاعدة للغربية العربية والزعيمة لها ، ولذلك كانت رمز مقاومة الاسلام ، والحصن العتيد المقاوم له . فلما دك هذا الحصن ، دكت المقاومة دكاً ، واستسلمت المواضع والقبائل للاسلام دون مقاومة تذكر .[4]

---

١ المعارف (ص ٣١٣) .

٢ Lammens, Mecque, 269, Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٣ Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٤ Wellhausen, Reste, S., 92.

وبلد مثل مكة فيه تجار وتجارة ورقيق وغنى وفقر وراحة وأصنام وعبـادة وحجاج يأتون للتقرب الى الأصنام ، لا بد ان يضع اهله لهم وللقادمين اليه انظمة وقوانين لتنظيم الحياة ، وتأمين الأمن وحفظ الحقوق وحماية من يفد اليه من الأذى لدوام مجيء الحاج اليه على الأقل .

فالكعبة ، وهي بيت الأصنام ، ارض حرام ، لا يجوز البغي فيها ، ولا المعاصي واقتراف الآثام . والمدينة ، وهي في جوار البيت ذات حرمة وقدسية . ودار الندوة دار مشورة وحكم وزعامـة . وسكان البلد الحرام هم في حمى البيت وفي جواره ، ولا بد من انصافهم واحقاق حقهم . ولانصافهم ودفع الأذى عن فقيرهم ، عقد حلف الفضول ، وتعهد سادات مكة بالدفاع عمن يستجير بهم ، وبتأديب من يتجاسر منهم على العرف والسنة ، وبذلك ، جعلوا مكة بلداً آمناً مستقراً في محيط تتعارك فيه الأمواج .

ولسياسة اهل مكة القـائمة على المسالمة وحل الخلاف بالتشاور والتفاوض ، رميت قريش البواطن ، وهم غالبية اهل المدينة بعدم القدرة على القتال وبالاتكال على غيرهم في الدفاع عن بلدهم ، وباعتمادهم على الأحابيش وعلى قريش الظواهر وعلى القبائل المحالفة لهم في الدفاع عن مكة . ولم تكن مكة وحدها بدعاً في هذا الأمر ، اذ كان اهل يثرب وأهل الطائف وسائر اهل القرى والمدر مثل اهل مكة ، غير ميالين الى الغزو والقتال ، ولهم حبال وأحلاف مع القبائل الساكنة بجوارهم ، لمنع تعدياتهم عليهم ، ولمنع من يطمع فيهم من تنفيذ ما يريد .

الرقيق :

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من اصل افريقي ، عرفت بـ (الأحابيش) وهم سود البشرة ، اشتراهم اثرياء مكة للعمل لهم في مختلف الأعمال ولخدمتهم . وقد كان هذا الرقيق ضرورة لازمة لاقتصاد مكة ولنظامها الاجتماعي في ذلك الزمن . فقد كان يقوم مقام الآلة في خدمة التاجر وصاحب العمل ، فكان مصدراً من مصادر الثروة ، وآلة مسخرة تخدم سيدها بأكل بطنها ، كما كان سلاحاً يستخدم

للدفاع عن السادة في ايام السلم وفي ايام الحرب . [1]

وقد سبق ان أشرتُ الى وجود (احابيش) بين اهل مكة ، زعم الاخباريون انهم عرب ، وانهم انما عرفوا بالاحابيش ، لانهم تحابشوا ، اي تحالفوا وتعاهدوا على التناصر والتآزر عند جبل (حبشي) ، فهم على زعم هؤلاء الاخبـاريين احابيش آخرون لا صلة لهم بالاحابيش الذين اتحدث عنهم .

وقد اشار اهل الاخبار الى ان قوماً من اشراف مكة تزوّجوا حبشيات فأولدن لهم اولاداً . ذكروا منهم (نضلة بن هاشم بن عبد مناف) و (نفيل بن عبد العُزّى) و (عمـرو بن ربيعة) و (الخطاب بن نفيل) ، والد (عمر بن الخطاب) ، ويذكر ان (ثابت بن قيس بن شماس الانصاري) عيّر (عمر بن الخطاب) فقـال له : يا ابن السوداء) ، فأنزل الله : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيراً منهم) [2] و (عمرو بن العاص) وجماعةٌ آخرين . [3]

وقامت بخدمة قريش طائفة اخرى من الآلات الحية ، هي ادق عملاً وأحسن خدمة وأرقى في الانتاج من الطائفة الأولى : الأحابيش ، استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق ، هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في ايدي الروم او الفرس او القبائل المغيرة على الحدود ، فيباعون في اسواق النخاسة ، ومنها ينقلون الى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الاعمال . يضاف الى هؤلاء ، الرقيق المستورد من اسواق اوروبة ، لبيعه في اسواق الشرق . وأسعار هذه البضاعة وان كانت أغلى ثمناً من اسعار البضاعة المستوردة من افريقية ، الا ان الجودة في الانتاج والتفنن فيه ، والبراعة في الصناعات التي لا تعرفها بضاعة الجنوب تعوّض عن هذا الفرق .

---

١ راجع مقال الاب لامانس في مجلة المشرق ، السنة الرابعة والثلاثين (١٩٣٦) ، (ص ١ وما بعدها) ، (ص ٥٢٧ وما بعدها) ، وعنوانه (الاحابيش والنظـام العسكري في مكة) .

٣ الحجرات ، الآية ١١ .

٢ المحبر (ص ٣٠٦) (أبناء الحبشيات) .

ومن جملة ما وُكِلَ الى رقيق العراق وبلاد الشأم والروم وغيرهم من ذوي البشرة البيضاء من أعمال ، ادارة المبيعات ، والقيام بالحرف التي تحتاج الى خبرة ومهارة وفن ، وهي من اختصاص أهـل المدن والمستقرين : مثل أعمـال البناء والنجارة والأعمال الدقيقة .

وهذه البضاعة التي استوردتها قريش الى مكة — وان كانت تابعـة ، تؤمر فتفعل ، وتكلف فتستجيب — كانت بضاعة حيّة ، لها قلب نابض ، ودمـاغ يعمل ، ولحم ودم ، ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها . فبضاعة هذا شأنها لا بـد ان تترك أثراً في البيئة التي استوردت اليهـا . والأخباريون الذين هم مرجعنا الوحيد في رواية أيام الجاهلية قبيل الإسلام ، وان لم يحدثونا عن أمر هؤلاء القوم في نفوس ساداتهم والذين اختلطوا بهم ، نستطيع بالاعتماد على نقد بعض النتف من رواياتهم ان نصل الى هـذه النتيجة التي هي شيء طبيعي وأمر ليس بغريب : نتيجة تقول ان هذه البضاعة تركت في نفوس أهل مكة وفي نفوس العرب الآخرين ممن كان لهم رقيق ، أثراً ليس الى إنكاره من سبيل ، وان بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية التي كانت معروفة عند العرب قبيل الإسلام ، والتي أكدوا هم أنفسهم انها لم تكن عربية ، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالصناعات والأعمال التي يأنف العربي من الاشتغال بهـا ، انما دخلت لغتهم وشاعت بينهم من طريق هؤلاء [1] .

وقد كان أغلب الرقيق الأبيض على النصرانية ، وقد ذكر الأخباريون أسماء لبعضهم من نزلاء مكة تشير بوضوح الى تنصرهم . وقد كان فيهـم من يتقن العربية ، ويعبر عن أفكاره بها تعبيراً صحيحاً واضحاً ، وفيهم من لا يفقه هذه اللغة ، لانه حديث عهد بهـا ، فكان يتكلم بلسان أعجمي أو بعربية ركيكة . ومنهم من كان يتباحث في أمور الدين ويشرح لمن يجالسه ما جاء في ديانته وفي كتبه المقدسة . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في الآيات : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ . لسان الذي يلحدون اليه أعجميّ ، وهذا لسانٌ عربيٌ

---

١ صحيح مسلم : (٢/١٨٩) . أسد الغابة (٥/٥٧٩) ، المشرق ، السنة (٣٥) (١٩٣٧) ، (٨٢) .

مبينٌ)[1] . (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بُكْرةً وأصيلاً)[2] .

وقال (ابن هشام) في تفسير الآية : (ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) : (وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المروة الى مبيعة غلام نصراني ، يقال له جبر ، عبد لبني الحَضْرمي ، وكانوا يقولون : والله ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام بني الحضرمي . فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم : ولقد نعلم)[3] . وهناك أشخاص آخرون كانوا موالي لا يحسنون العربية ولا يجدون النطق بها[4] .

وروي عن (عبد الله بن مسلم الحضرمي) انه (قال : كان لنا عبدان : أحدهما يقال له يسار ، والآخر يقال له جبر . وكانا صيقلين . فكانا يقرآن كتابهما ويعملان عملهما . وكان رسول الله يمرّ بهما فيسمع قراءتهما . فقالوا : إنما يتعلم منهما . فنزلت : ولقد نعلم انهم يقولون)[5] .

وأشير الى غلام آخر كان بمكة ، اسمه (بلعام) ، وكان قيناً ، ذكر ان الرسول كان يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا انه كان يتعلم منه . وقيل : إن ذلك الرجل الذي قال أهل مكة ان الرسول كان يتعلم منه ، اسمه (أبو اليسر) ، وكان نصرانياً[6] .

وفي جملة من أشار اليهم أهل اليسر من النصارى الذين كانوا بمكة ، رجل اسمه (نسطاس) ، وكان من موالي (صفوان بن أمية)[7] ، ونسطور الرومي ،

---

١ النحل ١٦ ، الآية ١٠٤ وما بعدها .
٢ الفرقان ، الآية ٥ وما بعدها .
٣ ابن هشام : السيرة (ص ٢٦٠) .
٤ الواحدي : أسباب النزول (٢١٢) ، أسد الغابة (٣/١٣١) ، (٥/١٩٤ ، ٤٦٢).
٥ الاصابة (١/٢٢٢) .
٦ الاصابة (١/١٦٥) .
٧ الاغاني (٤/٤٢) ، ابن هشام ، السيرة (٦٤٠) ، أسد الغابة (٢/٢٤٠) ،المشرق. السنة الخامسة والثلاثين ، (١٩٣٧) م) ، (ص ٨٨) .

ويوحنا مولى صهيب الروميّ ، وصهيب الرومي نفسه ، وهو من الصحابة ، جاء من بلاد الشأم ، ونزل بمكة ، وتشارك مع مُري قريش عبد الله بن جدعان ، ثم استقل عنه ، وصار ثرياً من أثرياء مكة . ثم دخل في الإسلام [1] . ومنهم مولى يوناني تزوج سمية أم بلال [2] . وقد بقي نفر من النصارى محتفظين بدينهم بمكة في أيام الرسول [3] .

وفي حديث الأخباريين عن بناء الكعبة ان قريشاً استعانت بعامل من الروم ، أو من الأقباط ، اسمه باقوم ، كان نجـاراً مقيماً بمكة ، في تسقيف البيت . وفي حديث آخر لهم : ان هذا الرجل كان في سفينة جهزها قيصر الروم لبناء كنيسة ، وقد شحنها بالرخام والخشب والحديد ، فجنحت عند (الشعيبة) فاستعانت قريش بما تبقى من أخشابها وبخبرة هذا الرومي في تسقيف البيت [4] . وقد دعي بـ (بلقوم الرومي) أيضاً [5] .

وفي كتب السير وكتب تراجم الصحابة أسماء جوارٍ يونانيات أو من بـلاد الشأم أو من العراق ، وقد تزوجن في مكة ونَسَلن ذرية كانوا فيها قبل الإسلام . وقد كان منهن في مواضع أخرى من جزيرة العرب بالطبع .

ويعود قسط كبير من وجود الكلمات الحبشية والرومية والفارسية في العربية الى الرقيق الأسود والأبيض . وهذه الكلمات هي مسمّيات لأمور غريبة عن العربيـة لم يكن لأهل مكة ولا لغيرهم علم بها ، فاستعملوها كما وردت وأخذت ، أو صقلت حتى لاءمت اللسان العربي ، كما حدث ويحـدث في اللغات الأخرى ، وعربت وصارت من ألفاظ العربية . وقد لاحق قسماً منها علماء اللغة ، فوضعوا

---

١ ابن هشام (٣٢١) .

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ٨٩) .

٣ (ضرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على نصراني بمكة دينارا كل سنة) ، كتاب الخراج ليحيى بن آدم (٥٣) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٣٩) ، المشرق ، الجزء المذكور (ص ٩٥) .

٤ الطبرى (٢/٢٠٠) ، السيرة الحلبية (١/١٤٣) ، الاصابة (١/١٣٦ ومـا بعدهـا) ، Ency., III, P. 584.

٥ الاصابة (١/١٦٦) .

فيها كتباً بحثت في تلك المعربات ، وفي القرآن الكريم طائفة منها لم يغفل عنها أرباب اللغة والمفسرون [1] .

أغنياء ومعدمون :

كان أهل مكة بين غني مُتْخَم وفقير معدم . وبين الجماعتين طبقة نستطيع ان نقول انها كانت متوسطة . وأغنياء مكة ، هم أصحاب المال ، وقد تمكنوا من تكثيره بإعمال ما عندهم من مال بالاتجار وباقراضه للمحتاج اليه ، وبإعماله بالزراعة ، واستغلاله بكل الطرق المربحة التي يرون انها تنفحهم بالأرباح .

وقد تمكن هؤلاء الأغنياء من بسط سلطانهم على قبائل الحجاز ، ومن تكوين صلات وثيقة مع أصحاب المال في العربية الجنوبية وفي العراق وبلاد الشأم ، بحيث كانوا يتصافقون في التجارة ويشاركونهم في الأعمال ، حتى صاروا من أشهر تجار جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد .

ويظهر مما جـاء في القرآن الكريم ان بعض هؤلاء الأغنياء كان قاسياً ، لم تدخل الرحمة ولا الشفقة قلبه . فكان يقسو على المحتاج ، فـلا يقرضه المال إلا بربىً فاحش وكان يشتط عليه . وكان بعضهم لا يتورعون من أكل أموال اليتيم والضعيف ، طمعاً في زيادة ثرائه . وكان يستغل رقيقه استغلالاً شنيعاً ، حتى انه كان يكره فتياته على البغاء ليستولي على ما يأتين به من مـال . وفي ذلك نزل النهي عنه في الإسلام . (ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) [2] . قال (الطبري) : (كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا . يأخذون أجورهن . فقال الله ، لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا . ومن يكرههن ، فإن الله من بعـد اكراههن غفور رحيم لهن . يعني إذا أكرهن) . وقال : (كانوا يأمرون ولائدهم يباغين ، يفعلن ذلك ، فيصبن فيأتينهم بكسبهن) . وروي ان هذه الآية نزلت في حق (عبد الله ابن أبي سلول) [3] .

---

١ المعرب ، للجواليقي .
٢ النور ، الآية ٣٣
٣ تفسير الطبري (١٠٣/١٨ وما بعدها) ، سورة النور .

وكان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف من ذهب وفضة ، ويشرب بآنية من ذهب وفضة ومن بلور ، ويأكل على طريقة الروم والفرس بسكاكين وشوكات مصنوعة من ذهب أو من فضة ، على حين كان أكثر أهل مكة فقراء لا يملكون شيئاً . وكانوا يلبسون الحرير ، ويتحلون بالخواتم المصنوعة من الذهب ، تزينها أحجار كريمة . ولعلّ هذا الإسراف والتبذير كانا في جملة العوامل التي أدت الى منع المسلمين من استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة للأكل والشرب ، ومن صدور النهي من استعمال الحرير للرجال [1] .

وقد حرص هؤلاء الأغنياء على اكثار أموالهم ، وعلى توسيع تجارتهم ، لذلك كانت هجرة الرسول الى يثرب وتحرش المسلمين بقوافلهم الذاهبة الآيبة بين بلاد الشأم ومكة لطمة كبيرة أصابتهم . لقد اجتمع ملأهم بعد وقعة بدر للتداول في أمرهم . فقال قائل منهم : (قد عوّر علينا محمد متْجَرنا وهو على طريقنا . وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا . قال زمعة بن الأسود : فأنا أدلكم على رجل يسلك بكم النجدية ، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى . قال صفوان ؛ من هو ؟ فحاجتنا الى الماء قليل . إنما نحن شاتون . قال : فرات بن حيان ، فدعواه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشتاء ، فسلك بهم على ذات عرق ، ثم خرج بهم على (غمرة) . وانتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم خبر العير وفيها مال كثير ، وآنية من فضة حملها صفوان بن أمية ، فخرج زيد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم ، فكان الخمس عشرين الفاً ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم الأربعة أخماس على السرية ، وأتى بفرات بن حيّان العجلي أسيراً ، فقيل : إن أسلمت لم يقتلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم ، فأرسله) [2] . وقد عرفت هذه الغزوة بـ (غزوة القردة) . وقد كانت في السنة الثالثة من الهجرة .

وقد أشير في ديوان (حسان بن ثابت) الى (فرات) هذا ، كما أشير

---

١ شمس العلوم (حـ ١ قسم ٢ ص ٢٩٣) .

٢ الطبري (٤٩٢/٢) ، (دار المعارف) ، الاشتقاق (٢٠٨) ، البلاذري ، انساب (٣٧٤/١) .

الى رجل آخر هو (قيس بن امرىء القيس العجلي) ، استأجرته قريش كذلك ، ليكون لها دليلاً يهدي قوافلها الطريق[1] .

وقد كانت قريش ، كما كان غير قريش ، ومنهم المسلمون يستعينون بالأدلاء لإرشادهم الطرق ، ولا سيما في أيام الخطر . وأيام جزيرة العرب كلهـا خطر دائم بالنسبة للتجار ، لما كانوا يحملونه معهم من أموال ، تسيل لعاب الطامعين في المال ، وتنسيهم كل عهد وموثق . لذلك كانوا يتحسسون جهدهم الطرق ، ولا يسيرون إلا في الطرق الآمنة التي يوثق من ذمم أصحابها ومن قدرة سادتها على ضبطها وعلى انزال أقصى العقوبة بالخلعاء وبالخارجين على الطاعة والعرف . ويستأجرون الأدلاء أصحاب العلم والدراية العملية بالطرق وبمخارجها وبكيفية الخروج من مآزقها ومهالكها وأخطارها ، يتفقون معهم على ارشادهـم ، على ان يكون لهم أجر حسن ان نجت القافلة من الخطر ووصلت سالمة الى مكانها المقصود .

وقد استغل تجار مكة أموالهم في الخارج ، وامتلكوا الصياع ، فامتلك (أبو سفيان ابن حرب) أيام تجارتـه الى الشأم في الجاهلية ضيعة بالبلقـاء تدعى بقبش ، فصارت لمعاوية وولده)[2] .

ولم يبال رجـال مكة من الاشتغال بالصناعات ، فقـد اشتغل قوم منهـم بالبزازة ، واشتغل بعض منهم بالخياطة ، فكان (العوّام أبو الزبير خياطـاً) و (كان الزبير جزّاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً ، وكان عامر بن كريز جزاراً ، وكان الوليد بن المغيرة جزاراً . وكان العاص بن هشام أخو أبو جهل حداداً ، وكان عقبة بن أبي معيط خمـاراً . وكان عثمان بن أبي طلحة الذي دفع اليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مفتاح البيت خياطاً ، وكان قيس بن مخرمة خياطاً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم ، وكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله ابن جدعان نخاساً ، له جوار يساعين ويبيع أولادهن ، وكان العاص بن وائـل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبـل ، وكان النضر بن الحارث بن كلدة

---

١ ديوان حسان (٢٩٥) ، (البرقوقي) ، (ص ٣٨) ، (هرشفلد) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٢٥) .

يضرب بالعود ويتغنى ، وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم حجاماً ، وكذلك حريث بن عمرو)[1] .

وإذا صح ما ذكرتـــه من كلام نقلته من (الأعلاق النفيسة) لابن رستة ، فإن ذلك ينفي ما يذكره أهل الأخبار من عدم وجود (نجّار) في مكة كالذي ذكروه من عدم وجود نجار بها يوم جددوا بناء الكعبة ، فحاروا في كيفية العثور على نجار يقوم بتسقيف البيت ، وبقوا في حيرتهم حتى اهتدوا الى رومي تحطمت سفينته عند الساحل ، فجاؤوا به ونخشب سفينته فسقف الروميّ (باقوم) لهـــم عندئذ الكعبة . وتنفي رواية (ابن رستة) ما ذكره غيره من ترفع ذوي الأسر من قريش من الاشتغال بالحرف اليدوية لأنها حرف لم تخلق للأشراف . ويكون ذلك دليلاً على ان بعض ما يذكره أهل الأخبار عن أهل مكة بعيد عن الواقـــع وتناقض فيما يروونه ، لم يفطنوا اليه ، لأنهم كانوا ينقلون الأخبار ، ويأخذونهـــا أنّى جاءت ، وغايتهم الجمع ، وعلينا الآن واجب التمحيص بين تلك الروايات ونقدها وغربلتها ، لاستخراج اللب من القشور .

وعندي ان الإسلام ، هو الذي صيّر قريشاً قريشاً المذكورة في الكتب . وهو الذي سوّدها على العرب ، وجعل لهـــا المكانة الأولى بين القبائـــل ، والخلافة فيها ، بفضل كون الرسول منها وظهور الإسلام في مكة . ولولا الإسلام ، لكانت مكة قرية من القرى ، لبعض أسرها ثراء حصلت عليه بفضل نشاطها وتقرّب رجالها الى سادات القبائل وحكام العراق وبلاد الشأم واليمن ، وبفضل دعوة رجال قريش القبائل المحيطة بمكة لحج البيت والتقرب الى الأصنام التي كدسوها فيه وحوله ، ومنها أصنام القبائل التي لها تعامل مـــع مكة ، فحصلت على ربـــح هو (حق قريش) من الغرباء وحق تعشير التجار وتعاطي البيع والشراء معهم .

ويبدو من أخبار الأخباريين عن البيت ؛ ان العناية لم توجـــه اليه إلا قبيل الإسلام ، وان الإسلام هو الذي رفع قواعده ، وعني بعمارته ، وهو الذي فرش مسجده بالرخام ، وجعل له أشياء كثيرة لم تكن موجودة في أيام الجاهلية . وقد صرف عليه الخلفاء أموالاً طائلة وذلك قربة لله رب البيت .

والواقع ان في كثير مما يذكره أهل الأخبار عن مكة ، مـــا يناقض بعضه

---

١ ابن رستة ، الاعلاق (٢١٥) .